ميخائيل نعيمه

زاد المعاد

مكتبة صادر
بيروت

الخيال

القيت بالانكليزية في «وست هول» من الجامعة الاميركية في بيروت تحت رعاية جمعية «ستودنتس يونيون» (اتحاد الطلاب) في ٢١ شباط سنة ١٩٣٣ . وقد نشرت الجمعية الاصل الانكليزي على حدة في كراس .

كأني بكم ، عندما كلّفتموني الخطابة ، حسبتم ان عندي لكم عطية . لا . ليس في مستطاعي ، ولا في مستطاع ايّ انسان، ان يعطيكم شيئاً . لان لكم الكون وكل ما فيهِ . فكما انّ في بذرة الارز الصغيرة تنطوي كل اسرار الارزة الكبيرة التي ولدتها ، هكذا انطوت فيكم كل امجاد القدرة التي بعثتكم من اللاوجود الى الوجود . ومثلما انه يستحيل عليكم ان تفكروا بزمان لم تكن تلك القدرة فيهِ ، كذلك يستحيل عليكم ان تفكروا بزمان لم تكونوا فيهِ . لانكم كنتم في ضمير الله دهوراً بلا عدّ من قبل ان تكونوا ما انتم اليوم . على حدّ ما كانت بقايا ارز لبنان الحاضرة في اوّل ارزةٍ طرحت ظلّها على الارض احقاباً طويلة من قبل ان سَمِعَتْ ولولة

الرياح في وادي قاديشا . فأنتم سرمديّون كالقدرة التي من رحمها انبثقتم . وفيكم كل اسرارها. اذنْ حذارِ من الذين ينادونكم من اعالي السطوح : « ها نحن مثقلون بالهدايا . تعالوا وخذوا منّا ! » حذارِ من هؤلاءِ لانهم انبياء كذَبة . وليس لديهم من عطايا سوى اوهامهم

جلّ ما يستطيع انسان ، او شيء ، فعله من اجلكم هو ان يمزّق الاقنعة التي تعميكم عمّا تملكون ، لا ان يعطيكم فوق ما تملكون . ومَثَل الناس ، من هذا القبيل ، مثَل رجل يفتش عن نظّارتيه حين انهما على انفه . ان ما يحتاجه رجل كهذا ليس نظارتين فوق نظارتيه بل اصبع تدلّهُ على النظارتين اللتين على انفه .

لا يهتمنّ احدكم بما يملك مخافة ان يُسلب منه . فليس في امكان انسان ان يحرمكم ميراثكم — حتى ولا اليد التي اعطتكم ما تملكون تستطيع ان تزيد فيهِ او ان تنقص منهُ مقدار ذرة . ولا تهتمّوا بمن سيقودكم الى ميراثكم . فأنامل الحياة الخفية تدلّكم عليهِ في كل لحظة من يقظتكم ومنامكم . وإمّا عميتم عنهُ فلأن العين الوحيدة المبصرة فيكم ما تزال مغشاة بأغشية كثيفة .

تلك العين هي الخيال .

اني لأرجو ألاّ يكون بينكم كثير من الذين تخيفهم كلمة

« الخيال » والذين يعتقدون ان لا محلّ لها الاّ في قواميس الشعراء والفنّانين والسحرة .

فما هو الخيال ؟

هو مقدرتكم ان تبصروا واجفانكم مغمضة، وتسمعوا وآذانكم مسدودة ، وتشمّوا وفي انوفكم سطام ، وتذوقوا وألسنتكم في غلاف ، وتلمسوا وايديكم مشلولة . هو مقدرتكم ان تدركوا حدود الحواس الخارجية فتجعلوا منها عبّارة تجتازون بواسطتها الى حيث لا حدود .

الخيال هو المشعال وحامل المشعال في دياجير الجهل من حولنا . هو الطريق والهادي الى الطريق في مهمه الوجود اللامتناهي . هو الدليل الأوحد الى الحقيقة . كلّ ما تتخيلونهُ كائن . وكلّ ما لا تتخيلونهُ لا كيان لهُ .

لن تستطيعوا ان ترودوا آفاق كيانكم الذي لا حدّ لهُ ، وتبصروه وحدةً كاملة ، الاّ متى اشتدّ خيالكم وكانت له قوادم جبّارة تهزأ بأعاصير الحسّ . وحتى يكون لكم خيال كذلك الخيال لن تبصروا إلاّ نتفاً مبعثرة من العالَم الشاسع الذي هو أنتم . وعالَمكم اذ ذاك عالَم مبتور ومشوّه أبداً .

أمّا العقل الذي يغالي الناس في تكريمه فليس سوى ولد جموح يقوده الخيال من أنفهِ ولكن قلّما يمشي بهِ بعيداً .

فاحذروا من ان تلقوا كل اتكالكم عليه . أوَما ترونه يجهد ذاته بغير انقطاع ، وبغير جدوى ، في تفهُّم اسرار الكون ، وهو ما يزال في جهده كالولد الذي اعطيتموه اكداساً من الوريقات الملونة وامرتموه ان يركّب منها صورة حيوان او انسان ؟ أوَما ترونه لا ينفك يضع هذه الوريقة بجانب تلك ، وهاتيك فوق هذه ، ثم يعود فيغيّر مواضعها ، وحتى اليوم لم تستقم له صورة كاملة لا لحيوان ولا لانسان ؟ فصورته ابداً مبتورة الرأس والذنَب ، واعضاؤها الحيوية لا تستقر على حال لكثرة ما ينتابها من التنقيل والتبديل .

لا يفتأ العقل يرسم خرائط للطرق التي تسلكها الحواس طمعاً بأن يؤلف منها خريطة كاملة للكون الكامل . وهو ماضٍ في عمله بجدّ لا يعرف الملل ، وصبر لا نفاد له . لا تفوتهُ عطفة واحدة في الطريق ، ولا مرتفع او منخفض ، ولا شجرة او ساقية . ولا يسهو عن باله ان يقيم الدلائل ويثبت العلامات الفاصلة على جوانب الطريق . لكنهُ ما أن ينتهي من خريطته ويلتفت الى الوراء ليغتبط بجمال عمله ودقّة فنّه حتى يرى ان « يداً خفية » قد عبثت بدلائله وعلاماته ، فنصّبت جبلاً منيعاً حيث كان في خريطته وادٍ عميق ، وبسطت بحرةً هادئة حيث كانت في خريطته غابة مدغلة .

غير ان العقل لا يقنط . فهو لا يعتّم أن يتناول قلمه من جديد ، وبكل تدقيق يأخذ في تصحيح خريطته بالحبر الأحمر . ولا يكاد ينتهي من تصحيحه ويعلن خريطته خالية من كل نقص حتى يعود ، بعد حين ، ويلتفت الى الوراء فيجد النقص فيها قد تفاقم . فيعكف على تصحيحها من جديد . وما ذاك الاّ لأن الطرق التي يحاول ان يرسم خرائطها تمرّ كلّها في صحارى الاختبارات الحسية حيث الرمال تنتقل ابداً من مكان الى مكان ومن حال الى حال .

يدأب العقل بغير انقطاع في الاودية المكتظة باشباح الحواس المظلمة . يتعثر هنا ، ويدبّ هناك ، ولا ينتهي الى شيء . امّا الخيال فبلمحة الطرف يطوف القمم المشرفة على تلك الاودية ، وكومضة البرق ينير بلحظة ارجاء فسيحة من الحقيقة حيث العقل يتلمّس سبيله وفي يده الواحدة عصاً كسحاء ، وفي الاخرى سراج بلا زيت .

لقد ينفق العقل اعماراً عديدة في درس مختلف النبات . فيفهرس اسماءَها ، ويبوّب مواطنها ، ويحصي اشكالها وألوانها ويظل ، مع ذلك ، لا يعرف عنها شيئاً لانهُ قاصر عن ان يرى نسبته اليها ونسبتها الى الخليقة بأسرها . اما الخيال فقد يحط على وريقة من العشب فتنكشف لهُ فيها اسرار كل نبتة ، بل وروح

المسكونة قاطبة . فهل من حاجة بهِ الى الفهارس والجداول ؟

ان تكن سبل العقل ، كما يزعم الكثير من الناس ، هي السبل الوحيدة الى الحقيقة ، فأين هو الانسان الذي في وسعه ان يقطعها كلّها في خلال عمر واحد ؟ أين هو الانسان الذي في مستطاعه ان يستوعب في سبعين سنة كل خرائط العقل التي ندعوها علوماً كالرياضيات والطبيعيات والكيمياءِ والبكتريولوجيا وطبقات الارض والنبات والحيوان والطب والفلك وسواها وسواها من علوم هذا الزمان الكثيرة؟ ان يكن كل علمٍ من علوم الناس قد كشف عن جزء من الحقيقة فكيف لي ولكم ان نعرف كل هذه الاجزاء ونضمها بعضها الى بعض لنصل الى الحقيقة كلّها ؟ ام انّ الحقيقة امرٌ لا ثبات لهُ — امرٌ يتغير ، ويتبدّل ، ويتجزّأ ؟

كلاّ ثم كلاّ ! انما الحقيقة واحدة — كانت وكائنة وباقية الى الابد . والحقيقة لا تنمو ولا تشيخ ، ولا تزيد ولا تنقص . وهي ليست هنا او هناك او في هذا الشيء او ذاك . بل هي في كل مكان وفي كل شيء. وليس فيكم منها اكثر مما في سواكم . بل هي في الكل بدرجة واحدة .إلاّ انها لا تزال مكفنة فيكم بأكفان عديدة حاكها العقل على منوال الحواس الخادعة والمخدوعة . لكنّ الزمان طويل . ولا بدّ من أن يأتيكم يوم يمزّق فيهِ

خيالكم تلك الاكفان فيظهركم لأنفسكم حقيقة عارية من كل ثوب .

قد تقولون : « ان هذا الرجل يثير حرباً على العقل . وليس يحيا بغير عقل الا ّ المجانين . أتراه يدعونا الى الجنون ؟ »

ألا انظروا الى اجسادكم كيف انها ، في تدرُّجها البطيء الى شكلها الحاضر ، قد استغنت عن اعضاء كثيرة كانت ضرورية لها وحيوية في سالف الاحقاب . هكذا الروح فيكم كلما تفتّقت عنه اكمام الحواس نبذ ، وسينبذ ، قوًى تحسبونها اليوم عريقة فيهِ ، لازمة لهُ . والعقل في جملة تلك القوى .

ان الذين خيالهم ما يزال في اللفائف لا بأس عليهم لو هم ارضعوه من ثدي العقل . سيكبر الطفل ويشتد وينتهي بأن يحمل أمّـه يوماً ما على ظهره الى المقبرة . والذي لا عكّـاز لهُ يتوكأ عليهِ غير عقله دعوه يتوكأ على عقله . فخير لهُ ان يكون اعرج من ان يكون كسيحاً . اما الذين نمت اجنحة خيالهم واشتدت ، واستطالت قوادمها وصلبت ، فلهم اقول : « ألا أطلقوا خيالكم من اقفاص العقل وحلّقوا معهُ حيثما حلّـق بكم . وعندئذٍ تجدون ان ليس في الكون ارجاء الا ّ ولكم فيها أثر . وعندئذ تلمسون انفسكم في كل ما تلمسون ، وتبصرون انفسكم في كل ما تبصرون . وعندئذٍ تتذوقون نشوة المعرفة بأنكم

والحياة بأسرها وحدة لا تتجزأ .»

ان خيالاً كهذا لهو القدرة الوحيدة التي في استطاعتها ان تحرركم من مدارس الحواس التي لا علم فيها ، ومن مطابخها التي لا غذاء فيها ، ومن حوانيتها التي لا كسب فيها . لو كان لكم مثل هذا الخيال لما عرفتم الوحدة ولا الوحشة . فأنتم لو جلستم وحدكم على صخرة في قفر ، وكان لكم خيال ، لوجدتم قوافل السنين واحشاد العناصر التي تعاونت في تكوين تلك الصخرة متّكئة عليها بجانبكم . وإمّا مسستموها بأذيالكم مسستم غبار كواكب لا تحصى ، وأجنحة طيور لا تُعدّ ، ورمال بحار كثيرة حتى وعظام اسلافكم ، بل وعظامكم في اعمار سابقة — ان كنتم من المؤمنين بالتقمص . وإمّا ارهفتم آذانكم سمعتم زحف اقدام الرياح على الصخرة وترانيم كل الاجواق المجنّحة التي استقرت عليها منذ تكوينها حتى الساعة . وإمّا جسستموها بأيديكم وجدتموها ، على كل ما فيها من صلابة ظاهرة ، ألين في يد الله من العجين في يد العجّان وأطوع من القوس في يد الرامي .

كذلك لو مشيتم في طريق مجدبة من الرفاق ، وكان لكم خيال ، لواكبتكم جماهير الناس والبهائم التي سلكتها من قبلكم ، ولسمعتم أهازيجهم وأنّاتهم ، ولأبصرتم هداياهم

وأوقارهم . ولو انكم اضطجعتم في مخدعكم ، وكان ليلكم طويلاً ولا سمَّار ، لمدَّ خيالكم الطليق يده إلى دراري الجلد ورصَّع بها سقف مخدعكم وجدرانه ، ثم جاءكم على أجنحة النسيم بكل أحلام البشرية المستيقظة والنائمة كيما تكون لأحلامكم سمَّاراً .

لو كان لكم مثل هذا الخيال لعرفتم أن لا فواصل بينكم وبين شيء في العالم الا الفواصل التي تقيمها اوهام الحسّ . فأنتم تخطئون كلما حسبتم أن هناك أموراً مختصة بكم دون غيركم ولا شأن فيها لسواكم . أما الخيال فيعلّمكم ان لكل إنسان ، ولكل خنفساء ، ولكل ذرّة رمل ، ولكل ما يؤلف الكون الأكبر ، شأناً في كل ما تعملون وتشتهون وتفكرون . فما انطلق في الكون صوتٌ الا كان نوطة في ترنيمة الحياة العامة . ولا فكرٌ الا كان خيطاً في نسيج الفكر الكوني . ولا شهوة الا كانت مويجة على سطح اوقيانوس الشهوات المشتركة .

والخيال يعلمكم ان الأموات لم يموتوا . فها هي أشواقهم واحلامهم ، افراحهم واتراحهم ، لعناتهم وبركاتهم لا تزال منبثّة في الهواء الذي تتنفسون وفي محيط الرغائب والافكار الذي منه تستمدون رغائبكم وأفكاركم . والخيال يعلمكم ان الذين لم يولدوا بعد هم الآن معكم وبينكم . فكل

الأغداء انما هي الآن هاجعة في حضن هذا اليوم .

واذ ذاك لعلكم تعكفون على انفسكم فتناقشوها الحساب عن كل فكر ، وكل كلمة ، وكل رغبة ، حتى وعن كل نسمة من الهواء تدخلونها صدوركم او تخرجونها منها . عالمين ان ذلك كله سيعود حتماً اليكم ، ان لم يكن اليوم فبعد اليوم ، مثلما تعود حتماً الى البحر كل قطرة خرجت منهُ ، حتى التي سجنتها الاقدار في قلب بلّورة دفينة في التراب . ولعلكم اذ ذاك تعرفون ان فيكم كل ينابيع آلامكم وملذاتكم . لانكم لا تلتقطون من الحياة الاّ الذي « تذيعون » .

من اجل ذلك اقول لكم : اذا ما نسجتم كساء لانسان فحذارِ من ان تنسجوا فيهِ حتى خيطاً واحداً من بغضائكم . لانهُ ، وان تستّر بهِ بدنٌ غير ابدانكم ، سيخدش ظهوركم .

واذا ما خبزتم رغيفاً ليباع في السوق فحذارِ من ان تخبزوا فيه ذرّة واحدة من حسدكم . لانهُ ، وان مضغتهُ أسنان غير اسنانكم ، سيكون غصّة مرّة في حلاقيمكم .

واذا ما حمّلتم الأثير فكراً من افكاركم ، فحذارِ من أن تكون فيهِ لعنة . لانها ، وان ولجت آذاناً غير آذانكم ، ستكون وباءً لاحلامكم .

لا تسألوا الخيال ان يثبت لكم ذاتهُ بحجة او برهان . انهُ

الحجة والبرهان لذاته . لا تسألوا محمداً برهاناً عن جبريله . فلو كان لكم خيال مدوزن لسماع انغام الوجود العلوية لسمعتم انتم كذلك جبريلكم .

ولا تسألوا يسوع حجةً عن أبيه السماوي . فلو كان لكم خيال يسبر الاغوار ويتسلق الاعالي التي سبرها وتسلّقها خياله لأبصرتم انتم كذلك أباه السماوي. ولا تسلوه كيف ردّ البصر للعميان ، والنشاط للمقعدين ، والحياة للأموات . فعندما تتعلمون كيمياء الخيال ، مثلما تتعلمون كيمياء الحسّ ، يصبح في مستطاعكم أنتم كذلك أن تجعلوا العميان يبصرون ، والمقعدين يمشون ، والاموات يستردون انفاسهم المخنوقة لا باعطائكم اياهم البصر والنشاط والنَفَس ، بل بايقاظكم في خيالهم تلك القوى التي تخلق البصر والنشاط والنَفَس .

كذلك لا تسألوا السامريّ لماذا ضمد جراح الاسرائيلي الذي انقض عليهِ لصوص في الطريق وتركوه بين ميت وحي ، والذي لم يرقّ لحاله احد حتى من ابناء جلدته . فأنتم لو كان لكم خيال يقِظ كخيال السامري لأدركتم ، مثلما ادرك ، انكم حراس لاخوانكم في الناسوت ، وان جرحاً في جسد انسان ، اياً كان واينما كان ، هو جرح في اجسادكم ، وانكم ما لم تضمدوه بمحبتكم مشيتم في الارض مقرَّحين

بقرحة خفية .

ما دمتم معرِضين عن الخيال ، ولا دليل لـكم غير حواسكم الخارجية ، بقي العالـَم الذي تحيون فيهِ عالماً تتعاقب فيهِ اللذة والالم من غير ان يكون في تعاقبهما وتوزيعهما ما يشبه العدل او المساواة . أمّـا بالخيـال فتدركون ان آلامكم إنّـما هي كلـّها آلام المخاض . هي آلام البذرة عندما تنفلق لتلد الشجرة . وآلام الشجرة عندما تلد البرعم . وآلام البرعم عندما تنشقّ اجفانه ليتقبـّل نور النهار وندى الليل . وآلام الزهرة عندمـا تنتزع الريح وريقـاتها الناعمة وتذريها في الفضاء . وأخيراً هي آلام الشجرة عندما تضمها الارض اليها لتقبل البذرة من رحمها .

وبالخيال تدركون ان كل ما يتراءى لـكم تفاوتاً بين حظوظ الناس من حيث اللذة والالم ، والجهل والمعرفـة ، ليس اكثر من التفـاوت بين البذرة والبرعم ، والزهرة والثمرة . فالبرعم ، في الظاهر ، يعرف من الوجود اكثر مما تعرفه البذرة . والزهرة اكثر من البرعم . والثمرة اكثر من الزهرة . لكنه تفاوت في الزمان والمـكان لا غير . والخيال الذي يطوي كل الزمان في « الآن » ويحشر كل المـكان في « هنا » لا يبصر من هذا التفاوت شيئاً . لانه يرى الشجرة والبرعم والزهرة والثمرة في البذرة من قبل ان تدرج البذرة من اكفانها .

فاحذروا من ان تحنوا رؤوسكم امام انسان . اذ ليس في الناس من هو اعظم منكم . او ان تكبروا على انسان . اذ ليس في الناس من هو اقلّ عطايا منكم . او ان تسألوا شيئاً من انسان . اذ ليس في الناس مَن يستطيع ان يعطيكم ما ليس بعضاً من ميراثكم .

اما اذا لم يكن لكم بدّ من الانحناء ، فانحنوا امام الخيال الاكبر الذي هو امّ لخيالكم . او لم يكن لكم بدّ من الكبر ، فاكبروا على عناكب الحسّ التي لا تنفك تنسج اغشية لخيالكم . او لم يكن لكم بدّ من السؤال فاسألوا ألاّ تفوتكم معرفة الرسل الذين يبعث بهم ابداً اليكم الخيال الاسمى لينهض بخيالكم من قيوده كيما يصبح شريكاً له في الخَلق وفي تدبير الحياة التي لا تُحدّ .

ان يداً نصف ذاوية تمتد اليكم في الشارع مستجدية حسنة قد تكون من رسل الخيال الاسمى اليكم . ومثلها كلمة طائشة تفلت من فم طفل ، او نملة هاربة بحبّة من قمحكم ، او ملمّة تنزل بكم ، او حلم يزوركم في المنام ، وكل ما ينتابكم من عوامل في خلال العمر . كل هذه قد تكون رسلاً اليكم . لكن اعظم رسول بغير استثناء هو المحبة . فاطلبوا كيما تتفتح بصائركم لتعرفوا اولئك الرسل ، وتفهموا

رسالتهم ، وتترجموها الى حريةٍ لخيالكم . فأنتم متى انفك خيالكم من اصفاده – لا قبل ذلك – تمكنتم من الوصول الى قلب الجمال والحرية – الى قلب المحبة والحق – الى قلب الله .

الابواق المحطمة

القيت في حفلة جمعية « تهذيب الشبيبة » في بيروت في ٢٩ نيسان سنة ١٩٣٣.

قد يكون من الكياسة ، ونحن في حفلة جمعية تعنى بتهذيب الشبيبة ، أن أكيل الشيء الكثير من المديح للجمعية . او أن افيض في الحديث عن التهذيب ومنافعه . او أن أتغنى بجمال الشبيبة ونشاطها والآمال التي تُعقد عليها . غير اني لست احسن النفخ في مثل هذا البوق . فأنا من بعد أن قضيت نصف عمري حتى الآن اتعلّم النفخ في ابواق الناس قضيت نصفهُ الآخر في تحطيم ما جمعتهُ من الابواق لأستعيض عنها ببوق واحد ، هو البوق الذي أمجّد بهِ الحياة الكاملة .

كأني بكم تقولون : « وما هي أبواق الناس التي حطمها هذا الانسان ؟ وما هي الحياة الكاملة التي يمجدها ؟ ان الحياة التي نعرفها تبتدىء بعويل الولادة وتنتهي بحشرجة الموت . فهي قاسية . والحياة التي نعرفها تجرّعنا الحلاوة بيمينها والمرارة

بيسارها . فهي شحيحة . والحياة التي نعرفها فيها الكسيح وفيها المجنّح . ومجنّحها ابداً يسبق كسيحها . فهي عرجاء . وفيها القوي وفيها الضعيف . وقويها ابـــداً يبطش بضعيفها . فهي ظالمة . وفيهـا الجمال والشناعة . والخير والشر . فهي ناقصة .»

لقد نفخت ُ مع الناس في البوق الذي يمجدون به ِ ربّاً يميت ويحيي ، ويعاقب ويثيب . واليوم أنفخ في بوق رب فوق الحياة والموت ، وأرفع من العقـاب والثواب . اذ قـد وجدت ان القدرة التي ندعوها الله هي الكل في الكل . لا حالات فيها ، ولا صفات لها ، ولا حقيقة إلاّها ، ولا وجود لشيء ٍ الاّ فيها . فان هي أماتتني فكأنها تميت ذاتها . لأنني منها وفيهـا . وهـل يمحو الله ذاتـه بذاته ؟ وان هي عاقبتني فكأنهـا تعاقب ذاتهـا وتقتص من ذاتها لذاتها . وهل يذنب الله الى الله ؟

ان البحر لا يميت قطرة من الماء عندما يستردّها من جوف صهريج في الصحراء الى جوفه . انما تميت قطرة الماء ذاتها ان هي توهمت ان الحياة كل الحيـاة في جوف الصهريج ونسيت انها ابداً في حوزة البحر حيثما انطلقت وانّى استقرّت . والبحر لا يعاقب قطرة من الندى ان هو انتشلها من بين أجفان زهرة على رأس جبل وأنزلهـا على ذؤابة قطربة في قعر واد ٍ . انمـا تعاقب قطرة الندى نفسها ان هي توهمت أجفان الزهرة خيراً

من ذؤابة القطربة .

لذلك حطّمتُ بوق الاله المميت والمحيي. والمعاقب والمثيب.

ولقد نفختُ مع الناس في بوق حب الحياة وكره الموت . الى ان أولمت مرة من نفسي وليمة للموت والحياة . فاذا بهما يأكلان بملعقة واحدة من قصعة واحدة ويشربان بكأس واحدة . وما برحت نفسي خواناً ممدوداً للحياة والموت حتى الساعة.

لذلك حطّمت بوق حب الحياة وكره الموت .

ولقد نفخت مع الناس في بوق التقدم . وقلت مع الناس إن للحياة مقدمة ومؤخرة . وان الذين في مقدمتها خيرٌ من الذين في مؤخرتها. وعندما جئت ابحث عن اول القافلة وجدتهُ مقطوراً بآخرها ، ووجدت الحياة تدور على ذاتها . وعلمت ان موقف الناس منها كموقف المتفرج على ينبوع متفجر من صخر. فهو لا يبصر منهُ الاّ على قدر ما تتناوله عيناهُ. ولو انه نظر اليهِ بعين خياله لأبصر اوله في البحر وآخره في البحر. ولأني تعلمت أن أنظر بعين خيالي أصبحتُ لا أبصر في الناس سابقاً ومسبوقاً ولا أفهم الناس عندما يتكلمون عن الحياة كما لو كانت ميدان سباق . ان تكن الحياة سباقاً فكيف لي ولكم ان نحكم في السابق والمسبوق ونحن لا نعرف أين ابتدأ السباق

وأين ينتهي ؟ انّ من يمشي الى الأمام كالذي يمشي الى الوراء .
فكلاهما ، ما زال ماشياً ، سيعود حتماً الى حيث كان .

لذلك حطّمت بوق التقدم .

ولقد نفخت مع الناس في بوق النموّ اذ نظرت بأعينهم الى ما حواليّ فرأيت النبات ينمو ، والحيوان ينمو ، والانسان ينمو ، ورأيت اعمال الانسان تنمو ومثلها جماعاته من العائلة ، الى القبيلة ، الى القرية ، الى المدينة ، الى الامّة ، الى المملكة .
غير اني عندما طلبت السر في هذا النمو وجدتهُ على عكس ما صوّرهُ لي الناس . فسرُّ النمو عندهم هو في الازدياد والتضخم والتمدد . اما الحياة فقد علمتني انهُ في التناقص والتقلص والرجوع الى الاصل . فنموّ الشجرة ليس في تضخم ساقها وامتداد اغصانها ووفرة ازهارها وأثمارها ، بل في الرجوع الى البذرة .
ونمو الانسان هو في التخلص من كل الزوائد وتمزيق كل اللفائف التي تستره عن نفسهِ . ولن يبصر الانسانُ الالهَ الكائنَ فيهِ الاّ عندما يلتهم الالهُ الانسانَ مثلما تلتهم الحطبةَ النارُ الكامنة في جوفها .

لذلك حطّمت بوق النمو .

ولقد نفخت مع النـاس في بوق الحرية . وعندما رحت أبحث عـن رجـل حرٍّ وجدت ملاّكين كثيرين وسمعتهم

يقولون : « انظر الى أملاكنا ما أوسعها . ونحن أحرار هنا نفعل ما نشاء . » غير اني رأيت حول أملاكهم سياجات من الاسلاك الشائكة ورأيت قلوبهم عالقة في أشواكها .

ووجدت متموّلين كثيرين وسمعتهم يقولون : « انظر الى الاموال التي جمعناها ما أوفرها . ونحن أحرار ننفقها مثلما نشاء . » غير اني رأيتهم يخزنون أموالهم في صناديق من حديد ومعها يخزنون قلوبهم ، ثم يعلّقون الصناديق برقابهم .

ووجدت ممالك كثيرة تعدُّ رعاياها بعشرات الملايين وسمعتها تقول : « أنظر فنحن اقوياء . ونحن أحرار نحكم أنفسنا بأنفسنا . » غير اني رأيت في تلك الممالك جنوداً غفيرة وأساطيل ضخمة . فأيقنت ان الناس لا يعرفون من الحرية حتى خيالها . لانهم قد جعلوا من حياتهم شبكة هائلة من السياجات — سواء أكانت تلك السياجات أسلاكاً شائكة ، أم صناديق من حديد ، أم جنوداً ، أم أساطيل ، أم قوانين ، أم تقاليد ، أم معاهدات سلمية ، وهم لا يفقهون ان ليس في استطاعتهم أن يسيّجوا على الحرية اكثر مما في استطاعتهم أن يحصروا نور الشمس في زجاجة . وما سياجاتهم كلها الاّ رموز المخاوف الناشبة مخالبها في قلوبهم . وكيف يشعر بالحرية من كان قلبه في مخالب الخوف ؟

رأيت الناس يسيّجون أملاكهم وبيوتهم وكل مقتنياتهم .

أما نفوسهم فيتركونها مشاعاً لكل فكر خبيث ونية سيئة وشهوة دنيئة . ومن لم يتحرَّر من رجاسة نفسه أنّى لهُ ان يتحرَّر من رجاسة الغير ؟ ان سقراط في سجنهِ كان حرّاً وهو يجرع السم حين ان أهل أثينا كانوا عبيداً وهم يجرعون الخمر خارج السجن .

وهكذا علمتني الحرية ان أطلبها في روحي لأضمن سياجات الناس . وأفهمتني أنّ أفقر الناس أكثرهم سياجات . وأشدهم عبودية من ظن أن في وسعهِ أن يستعبد سواهُ . وأضعف الممالك أوفرُها جنوداً وأضخمها أساطيل . وأذل الامم أمة تتوهم أن في طاقة أمة أخرى ان تسلبها او ان تهبها الحرية .

لذلك حطّمت البوق الذي ينفخ فيهِ الناس باسم الحرية .

ولقد نفخت مع الناس في بوق الشرف . وعندما وقفت على قارعة الطريق أستنطق الشرفاء من الناس وجدت بعضهم يرى شرفه في حسبه . وبعضهم في وسامٍ على صدره . وبعضهم في ورقة معلّقة على جدار بيتهِ قد تكون شهادة من مدرسة او رسالة من ملاكم شهير . وبعضهم يرى نفسه أشرف من الناس لأن الناس قلدوهُ وظيفة . وبعضهم يرى شرفه في حسن سمعته بين الناس . وبعضهم في طربوشه او حذائه . غير اني لم ألقَ بعد شريفاً ليس في استطاعتي واستطاعة سواي نزع شرفه

بكلمة واحدة – يا أحمق أو يا كذاب . او نحو ذلك من الكلمات التي يحسبها مهينة . فشرف يسيّجه انسان بأعزّ ما لديهِ ثم تنزعه عنهُ كلمة واحدة من رجل سواهُ لشرف أقلّ ما يقال فيهِ انهُ تاج من دخان . اما الانسان الذي يعقد الآزال بالآباد والذي تعانق جذورهُ جذورَ كل الحياة فقلما وجدت من يكتفي بوسامه وساماً او بشرفهِ شرفاً .

لذلك حطّمت بوق الشرف .

ولقد نفخت مع الناس في بوق المساواة . الاّ انني عندما أخذت ذراعهم لأساوي نفسي بسائر الناس وجدتني أقصر من بعض وأطول من بعض ، ووجدت ذراعهم من مطّاط . فهي قصيرة اذا أرادوها قصيرة . وطويلة اذا أرادوها طويلة . وعندما اخذت ميزانهم لأزن نفسي معهم وجدت بعضهم أرجح مني ووجدتني أرجح من بعض . فكفتا ميزانهم لا تستويان على شيء . وهما ابداً في نِفَار . اذا صعدت الواحدة الى فوق هبطت الاخرى الى أسفل .

غير ان الحياة كانت أحنّ عليّ من الناس . فقد أعطتني ذراعاً واحدة لكل شيء . اذ علمتني ان لا طول لها ولا عرض ولا عمق . وانها فوق كل قياس لانها أبعد من كل حد . مثلما أعطتني ميزاناً يستوي في كفتيه كل شيء . اذ علمتني انّ أصغر

ما فيها يتمم اكبر ما فيها . وأن أكبر ما فيها يخدم أصغر ما فيها . وليس في قدرة بشر او إله ان يزيـد فيها او أن ينقص منها قدر درهم . فلا الجبـل اثقل من ذرّة الرمل . ولا الثور اعظم من الضفدع . ولا الثمرة أثمن من الحطبـة . ولا الزهرة أقدس أو أجمل من الشوكة .

ثم ان لكل ما في الحياة شركة في كل شيء آخر . فللدبور وللزلقطة شركة في عناقيد كرمتي مثلما لي شركة في عسل النحلة ولـبن البقرة . وللحكيم قسط من جهلي كما ان لي قسطاً من حكمته . وللقوي حصته في ضعفي كما ان لي حصة في قوتـه . فأنا ما أكلت من ثمار الحياة الاّ لأكون ثمراً لغـيري من أبناء الحياة . ولا استنرت بنورهـا الاّ لأكون نوراً لسواي . فهي المطعمة وهي المنيرة في كل حال .

لذلك حطّـمت البوق الذي ينفخ فيهِ الناس باسم المساواة .

قبل أن حطّـمت أبواق الناس كان الناس عنـدي ذوي أصوات عديدة ووجوه لا تحصى . وكانت أصواتهم جَلَبَةً في أذنيّ . ووجوههم أغشية على عينيّ . فكنت أصغي اليهم ولا أسمعهم . وأنظر اليهم ولا أبصرهم . اما اليوم فاذا ما أصغيت الى الناس سمعت صوتاً واحداً — صوت الانسان الحامل كل اصوات الحياة مثلما يحمل الفضاء كل أصوات الارض والسماء . وهـو

صوت ليس أعذب منهُ في سمعي. واذا ما نظرت اليهم أبصرت لهم وجهاً واحداً – وجه الانسان الذي تتجلى فيهِ كل وجوه الحياة مثلما تتجلى السماء في قطرة من الماء. وهو وجه ليس أجمل منهُ في نظري.

ألا مجدوا معي الانسان. مجدوه فهو أعظم من كل اعماله. وهو كالبحر يقذف باللآلىء والاصداف غير انهُ اكبر من كل ما فيه من لآلىء وأصداف. مجدوهُ فمهده في الازل ولحده في الابد. مجدوهُ لانهُ وان دبّ على الارض برجلين من رصاص ويدين من حديد فهو يمنطق الاكوان بخيال من نور. مجدوهُ لانهُ في كل يوم يَصلب نفسه ويدفنها. وفي كل يوم يتغلب على الصليب والقبر. مجدوهُ لانهُ كامل وعنوان الحياة الكاملة. وعندما تدركون كماله حطّموا البوق الذي تمجدونهُ بهِ. فالكمال أرفع من ان يُرفع وأمجد من ان يُمَجّد.

صنين والدولار

القيت في حفلة اقامتها بسكنتا – مسقط رأس الخطيب – على اثر عودته اليها في ايار سنة ١٩٣٢ من بعد غربة عشرين سنة في الولايات المتحدة . وبسكنتا واقعة على سفح صنين الغربي ، ١٣٠٠ متر فوق سطح البحر . والمدرسة التي اقيمت فيها الحفلة هي التي تلقن فيها الخطيب دروسه الابتدائية . اما صنين فهو القمة الشهيرة التي تتوسط سلسلة جبال لبنان .

يا أبناء بَسْكِنْتا ، يا لحمي ويا دمي !

منذ عشرين سنة أدرت وجهي الى البحر وظهري الى صنّين . واليوم صنّين امامي والبحر ورائي . وأنا بين الاثنين كأني في عالَم جديد ، وكأني وُلدت ولادة ثانية .

ما أنا بالنبيّ يصنع العجائب . غير اني منذ عدت اليكم والعجائب تكتنفني . فكأنني في عالَم مسحور . أنظر الى الجبال التي كنت أتسلقها فاذا بها تتسلقني . والى الاودية التي كنت أهبط اليها واذا بها تهبط الى اعماقي . والى البساتين والكروم

والحقول التي كنت أتمشى فيها واذا بها تتمشى بين جنبات ضلوعي ، وكأنَّ كل غرسة فيها غُرست في داخلي . وكأنَّ كل يد تعمل في تربتها تعمل في تربة نفسي .

لا أكاد ألمس حجراً الاّ تفجرت منهُ سيول من الطهر والجمال . لا أكاد أسمع زقزقة عصفور الاّ سمعت فيها اجواقاً من الملائكة ترنّم بصوت واحد: « قدوس . قدوس . قدوس . » لا أكاد ارفع بصري الى نجم الاّ تدلّت منهُ سلالم سحرية . هي سلالم المحبة التي تربط كل ما في السماء بكل ما على الارض .

ومن ثمّ فكيفما انقلبت تجمهرت عليَّ ذكريات ما كان من حياتي قبل هجرتي . فهي تثب عليَّ من جوانب الطرق ، وشقوق الصخور ، وخطرات النسيم ، وقطرات عيون بسكنتا الكثيرة .

هي ذي وجوه أتراب صباي تُطل عليَّ من جدران هذه المدرسة . وأصواتهم تتعالى في أذني . وأشواقهم وأوجاعهم تزدحم في قلبي . وبينهم مَن هم اليوم خلف ستار المحسوسات ، فألف رحمة عليهم . وألف سلام على الذين ما برحوا يتنفسون بأنفاس هذه الارض أينما كانوا .

نعم ، لقد بعثرتُ في هذه الارجاء كل ايام طفولتي وصباي ، وقسماً كبيراً من شبابي . بعثرتها بدون حساب وبدون أمل بأيما ثواب . فكنت كالزارع يزرع ولا يدري ماذا وأين يزرع .

وها أنا اليوم أحصد ما زرعت . زرعت أحلاماً أحصدها اليوم محبة في قلوبكم . وبعثرت أشواقاً أجمعها اليوم أشعة من أنوار عطفكم . تلك هي غلّتي من قلوبكم وهي في نظري أوفر من أن تثمّن ، وأقدس من أن توصف ، وأبقى من أن أطلب بعدها زيادة .

لقد كان لي عندما غادرت هذه الربوع أب واحد وأم واحدة . واليوم اينما وقعتْ عيني على اب ٍ أبصرت فيهِ أباً لي . وحيثما التقيت أُمّاً على صدرها طفل رأيتني ذلك الطفل ورأيت في أمه أُمي . لقد كان لي مسكن واحد واليوم لي في كل بيت من بيوتكم مسكن . فما اكرم ربي الذي يسّر لي التمتع بهذه النعمة . وما اطيبكم تحسبونني اهلاً لها !

***

يقولون إن الغربة مدرسة . اجل ، انها لمدرسة . غير انها كسواها من المدارس لا تعطي الطالب اكثر مما يعطيها . فهي تنمي ما غرسته ُ فيهِ يد الحياة ولا تلقّنه ُ دروساً ، بل تساعده ُ على درس ما فيهِ . والدرس الذي علمتنيه الغربة هو ان لا غربة في هذا الكون على الاطلاق الاّ غربة الانسان عن ربه ، غربة الانسان عن نفسه . فالناس مهما تعدّدت الالسنة واختلفت الاقاليم والالوان والاذواق والاديان هم هم في كل مكان . والذي

يغترب عن دياره ليفتش عن غير نفسه لا يلاقي الاّ المرارة وان جمع جبالاً من المال .

كل ما تسمعونهُ عن التغرُّب لكسب المعالي والثروة والفخار ليس الاّ قبض الريح . تلك كلمات معسلة في قلبها علقم . فما هي المعالي التي يستطاب من أجلها ركب البحار واقتحام الاخطار ؟ أهي ان تصبح على رأس جبل وجارك في وادٍ لا سلّم يرقى بهِ اليك وتنزل بهِ اليهِ ؟

وما هو الفخار ؟ أهو أن يشقى جارك ليبتاع بخوراً يحرقهُ أمامك وأن تنعم أنت ببخوره وشقائه ؟

وما هي الثروة ؟ أَهي ان تشبع وجارك جائع ، او ان تلبس الحرير وهو عريان ؟ صدّقوني ان لا راحة في ذلك ولا سعادة .

ها أنتم أمامي . ولا اظن ان في صدر واحد منكم قلباً ليس مشدوداً بحبل من الشوق والقلق والألم — حبل طرفه الواحد هنا والآخر في مكان قصيّ وراء البحار قد لا تعرفون منهُ حتى اسمه ، هو المكان الذي أمّه حبيب من أحبّائكم لكسب المال . فلا أنتم سعداء ، ولا أحبّاؤكم المغتربون عنكم سعداء .

لو جمعتم كل ما ذرفتهُ عيون بسكنتا من دموع منذ

ابتداء المهاجرة حتى اليوم لطاف بهِ وادي الجماجم[1]. ولو كان لكم ان تستخرجوا من الأثير كل ما أودعتهُ قلوبكم وقلوب آبائكم واجدادكم من تنهدات وتحرُّقات وأن تدفنوهُ في قلب صنّين لتحوَّل صنّينكم الساكن الى بركان.

فماذا استقطرتم من دموعكم وماذا قطفتم من لوعاتكم؟ لعمري، لو كان ما سكبتموهُ من الدموع صلوات لربكم ليجعلكم طاهرين آمنين كالجبال التي تحرسكم لرفعكم ربكم اليهِ على بساط من النور والرحمة. ولو أنكم حرقتم ما حرقتموهُ وتحرقونهُ من قلوبكم ذبيحة للارض التي قُدَّت أجسامكم منها لتحوَّلت حتى صخورها الى أثمار، وأشواكها الى أزهار. ولفاضت عليكم من اخاديدها ينابيع من الوفرة والعافية.

كان اكثر الذين تلطَّفوا بالسلام عليَّ يسألني عن الازمة في اميركا. فكنت أحدّثهُ عن اختلال التوازن الاقتصادي في العالم. وعن هبوط اسعار القطن والحنطة والبن والحديد والنحاس. وعن الماكنات التي اخترعها الانسان ليفكَّ بها قبضة الحاجة عن خناقهِ فخنقتهُ. كنت أحدّثهُ عن ذلك ثم أنظر الى صنين فأستهجن صوتي، وأخجل من نفسي، وأشعر بألف وخزة في داخلي، وألف حرقة في قلبي. ويهتف هاتف من أعماق كياني:

---

[1] هو واد بالقرب من بسكنتا، شهير بعمقه ووعورته ورهبته.

«يا للرزيّة! أتهبط عزيمة القاطن في سفح صنين بهبوط اسعار البن في سان باولو ، وتنهار آماله بانهيار البورصة في نيويورك؟ ما لصنين وللديون الدولية ، وما للآكام المتكئة في احضانه وللميزانية في واشنطن؟»

ما أبعد السلام المخيّم في جبالكم عن الجلَبة المعسكرة في مدينة كمدينة نيويورك! فعلامَ تُصرّون على تزويج سلامكم من تلك الجلَبة؟

سلامكم هو أنفاس العزة القدسية المنبعثة من صخوركم وترابكم وأعشابكم. وتلك الجلَبة هي تطاحن المطامع والاهواء البشرية في سبيل الريال. والاثنان لا يتزاوجان ولن يتزاوجا. وليس أضلّ ممن يعتقد ان بامكانه التوفيق بين ريال نيويورك وسلام صنين. فريال نيويورك نقاب كثيف يحجب وجه الله. وصنين عرش من طهارة يبدو عليهِ وجه الله سافراً. مَن اختار منكم ريال المهجر وكل ما في قلبه من جلَبة لا تستكنّ فليطلّق سلام صنين.

تقولون لي: وهل نأكل سلام صنين اذا عضنا الجوع، او نلتحف به اذا قرصنا البرد؟

وأنا أقول لكم: بلى والف بلى. فالجمال الذي تنثره يد الله حواليكم بسخاء هو الطعام والكساء والمأوى لكل ما هو

أزلي وأبدي فيكم . اما الذي سيفنى منكم فلهُ من التربة التي حوّلتها عضلاتكم الى جنائن وكروم وحقول ما يكفيهِ لقطع مرحلة العمر . وليس آمن مِنْ تربتكم مستودعاً لعرق جبينكم ، ولا أحنّ منها عليكم ، ولا أطهر من الخيرات التي تكافئكم بها لقاء أتعابكم .

قالت لي احدى النسوة اللواتي جئنني مسلِّمات عندما وضعت يدها في يدي : « يا عيب الشوم منك ، ديّاتي مخشبرين . » فأجبتها : « بل يا عيب الشوم منك ، ديّاتي ناعمين . » وعجبت لزمان تعتذر فيهِ اليد التي تعطي لليد التي تأخذ .

اقول لكم ان كل يد خشّنها العمل تصافح يد الله وتشاركها في توليد خيرات الارض ؛ والذي يخجل منها انما يخجل من ربه . حين ان الكثير من الايدي الناعمة قد لا يصافح الا يد إبليس .

لا تخجلوا من العمل الذي هو بحقٍّ عمل . واخجلوا من البطالة التي تتزيّا بزيّ العمل وهي بطالة . ولا تتوقعوا ان تأتيكم السعادة في مركب من وراء البحار . فأنتم لو لاصقت ارواحُكم ارواحَ جبالكم كما تلاصق أجسادُكم اجسادَها لوجدتم المسكونة بأسرها في أحضانكم .

ورب المسكونة في قلوبكم .

مدنية الآلات والازمات

ألقيت في ١٩ حزيران سنة ١٩٣٢
في حفلة أقيمت تحت رعاية جمعية « التضامن
الأدبي» في مسرح « الأمبير» ببيروت.

يا أبناء بلادي !

شاءت جمعية «التضامن الادبي » ان تجعلني موضوع هذه الحفلة. وبودّي ان اجعلكم موضوعها. ولقد البسني شعراؤها وخطباؤها الكثير من نسيج لطفهم وعطفهم وبيانهم، وها انا استميحهم واستميحكم عذراً لأخلع عني ما خلعوهُ عليّ وأقف أمامكم لا شاعراً ولا ناقداً ، لا هدّام قديم ولا بنّاء جديد — بل انسانٌ تجمعهُ بكم قبل كل شيء شركة الانسانية في السماء والارض والحياة والموت. ومن ثمّ تربطهُ بكم روابط اللحم والدم واللغة. فأنتم مني وانا منكم. وصبغتكم صبغتي وان اصطبغت علاوة عليها بألوان كل الامم وحضاراتها ومدنياتها.

تركت نيويورك وفي اذنيّ ولولة الانسانية بأسرها . وولولة تكاد تحسبها حشرجة الموت ولولة لا تسمع منها الا كلمة

واحدة : الازمة. الازمة. الازمة.

لو ان زلزالاً حلّ بالارض فقطّع احشاءها وجفف ضرعها، أو لو ان قدرة فككت ما بين النجوم من أواصر، وبعثرت الشموس والاقمار هباء في الفضاء، لقلنا: هي ضربة من عالم خفي. غير ان الارض ما برحت تغمر الناس بخيراتها، والسماء ما فتئت تمطرهم بركاتها. فمن اين هذا الكابوس الذي ضيّق أنفاسهم – من أين هذه الأزمة؟ في الولايات المتحدة التي هي اليوم حادية القافلة البشرية، جبال من الحنطة – وجموع غفيرة من الجياع. وفيها ألوف من المساكن الفارغة – وألوف من الذين لا مأوى لهم. وفيها أكداس من الأقمشة – وجماهير من الناس تكاد اثوابهم البالية تلتصق بجلودهم. وفيها من الاختراعات ما لا يحصيه ذِكر – وملايين يطلبون عملاً فلا يجدونهُ.

ما تلك نكبة الولايات المتحدة وحدها. إن هي الا نكبة العالَم أجمع. هي نكبة مدنية رأسها في جيبها وقلبها في معملها. فإن أنت شددت على جيبها شددت على خناقها. وإن أنت أقفلت أبواب معملها أقفلت أبواب قلبها. والذي شدّ على خناقها وأقفل ابواب قلبها لم يك الا كفّها. فهي كالصائد وقع في شباكه، وكدودة القز حاكت من قلبها كفناً لقلبها. غير ان دودة القز تخرج بعد حين من كفنها لتحيا حياة جديدة مجنَّحة. اما هذه المدنية

فلست ادري متى وكيف تمزّق ما حاكته لنفسها من الاكفان.

ليس يحزنني اكثر من الذين يفتشون عن داء المدنية في مفاصلها. ويبتدعون لها من العقاقير الاقتصادية والمالية والاجتماعية والسياسية ما يضحك ويبكي، وداؤها في رأسها وفي قلبها. وما طبّ الاقتصاديين في ازمتهم بأنجع من طب زملائهم السياسيين في استئصال داء الحرب. فهؤلاء يصرفون السنين في عقد المؤتمرات لتخفيض السلاح، والتطبيل والتزمير للسلم. والحرب، لو يعلمون، لا تستعر نيرانها في أجواف المدافع، بل في قلوب الناس وافكارهم. والسلم لا يولد في المؤتمرات الدولية، بل في قلوب الناس وافكارهم ايضاً. فهم لو دمروا كل اساطيلهم، وسكّوا سيوفهم محاريث، وسبكوا مدافعهم اجراساً، وحوّلوا ثكناتهم العسكرية الى معابد ومدارس، لما تخلّصوا، مع ذلك، من الحرب.

ألا فليجرّدوا اولاً قلوبهم من مدافع الطمع، وحراب البغض، وقنابل الحسد. ألا فلينقّوا افكارهم من الوهم بأن لانسانٍ الحقّ ان يستعبد انساناً، او أن يأخذ منه اكثر مما يعطيه. ألا فليتعرّوا من اثواب مدنيتهم التي تخولهم ذلك، وحينئذٍ يتنفسون الصعداء ويتخلصون من كابوس الازمات والحروب.

ويلٌ للانسان يخترع الآلات لتكثير خيرات الارض.

واذ تكثر خيراته تكثر غصّاته.

ويلٌ له ُ يجدّ وراء الراحة. واذ يجدها لا يعرف كيف يستغلها. فيقدمها ذبيحة لابليس.

ويلٌ له ُ يستنبط الحيل لتقصير المسافات فيبقى حيث هو. فلو انه اتخذ جناحين ليطير بهما من البغض الى المحبة، ومن الشقاء الى السعادة، لقلنا: بارك الله في جناحيه. لكنه ُ يحمل في الهواء كل ما يحمله على الارض من بغض وحسد ومطامع وهموم وأوهام. فلا فرق اذ ذاك أقَطَعَ الف ميل في الساعة أم ميلًا واحداً. فالمسافة بين ما يعرفه ُ من نفسهِ وبين ما يجهله منها هي هي.

وأنتم يا ابناء بلادي ليس يؤلمني من أمركم شيء على قدر ما يؤلمني تطلّعكم الى الغرب، وجهدكم في تقليد مدنيته المحتضرة، واحتقاركم لانفسكم ولكل ما فيكم من غنىً فطري وعُري روحي.

ولكَم سمعتكم تقولون: لنقتبس من الغرب حسناته، ولنضمها الى حسناتنا. وعندئذٍ تكتمل لنا السعادة. اوَلا تعلمون ان لكل ما تقتبسونه وجهين – وجهاً صالحاً ووجهاً طالحاً؟ فأنتم ان اقتبستم – مثلًا – حكومة البرلمانات اقتبستم مع محامدها كل مفاسدها. ومفاسدها لا تعدّ. وان اخذتم

السيارة اخذتم مع بوكاتها كل لعناتها. مثلما انكم عندما تقبلون قطعة من النقد لا تقبلون «طرّتهـا» دون «نقشتها» اذ لا سبيـل الى الفصل بين الاثنتين.

ثم انـكم تفاخرون كل المفاخرة بتاريـخ بلادكم. فتدعونهـا «مهد الانبياء». فما نفعكم من هذا المهد وقد اصبح اليوم عشاً طار منهُ فراخه ؟

ما نفعكم من انبيائـكم ما لم يشعّ نورهم في قلوبكم؟ أراكم قد دفنتموهم في بطون الكتب وفي ظلمـات المعـابـد ويا ليتـكم تدفنونهم في أرواحكم !

لقـد علـّمكم انبياؤكم ان تتعروا امام الحق فتمثلوا لديهِ لا رفعاء ولا وضعاء، بل ابناء تساووا بما لهم وما عليهم. وها أنتم تنتقون من بينـكم افراداً فتخلعون على البعض جبـّة «الفخامة» وعلى الآخر «العطوفة» وعلى الثالث «السعادة» فكأنّ من بقي منـكم ليسوا الاّ خشارة الحياة. وهكـذا تُسكنون الذل في قلوبـكم وشفاهـكم تطلب الرفعة. وتبنون أعشاشاً للعبودية في أرواحـكم وألسنتكم تنادي باسم الحرية. ألا كفى الانسان مجداً انهُ انسان !

كذاك أسمعكم تقولون: بلدنا بلد طيب المناخ، جميل الوجه، لكنهُ فقير.

ألا خبّروني ما هو الفقر ؟ أهو الفقر ان تكون لك عزيمة تفتق من الصخور عنباً وزيتوناً وقمحاً كما تشهد جبالكم ؟

أهو الفقر ان تشرب ماءً قراحاً وتنشق هواءً معطراً ؟

أهو الفقر ان تفترش الارض وتلتحف السماء وان تقاسمك العافيةُ فراشك ولحافك ؟

أم هو الفقر ان تأكل رغيفاً معجوناً بعرق جبينك ومخبوزاً بنار ايمانك بدلاً من ان تأكل رغيفين معجونين بدم قريبك ومخبوزين بنار بغضائه وألمه؟

وما عساني أقول في جمال هذا البلد الذي ترونه فقيراً؟ ان لم يكن لهُ من بحره وجباله الا جمالها لكفاه ذاك ثروة.

انهُ لمن السهل ان تحدد ثمن ذراع من الحرير او رطل من البصل. اما هياكل الصخور التي تحج اليها الرياح والنسور، والتلال الحاملة على ظهرها الصنوبر والسنديان والريحان، والأودية العابقة بأنفاس السلام، وملاءة النسيم السحرية التي تنخل لك من نار الشمس نوراً وبلسماً – كل هذه وسواها من نوعها كيف تثمّنها ؟

لقد مضى على مغادرتي نيويورك شهران بالتمام قضيت عشرين يوماً منهما في مدرسة البحر، واربعين في مدرسة صنّين. انها لفسحة قصيرة من العمر ان هي قيست بعدد ساعاتها، بل هي

لمحة من طرف الزمان ؛ غير انها لمحة تعانقت فيها الآزال والآباد ، وتصرمت المسافات ، والتصقت البدايات بالنهايات ، اذ ابصرت فيها الحياة عريانة من كل زخرفة وبهرجة ؛ وادركت انها لا تفتح ذراعيها الا الذين يدنون منها بأرواح عارية من كل شيء سوى المحبة. وقلوب خالية من كل شوق سوى الشوق الى الحق. اما الذين يطلبونها بأردية كثيرة من المعرفة الموهومة فيبتعدون عنها كما ابتعد آدم عن ربه يوم ارتدى ثوباً من ورق التين مدعياً ستر عورته، حين لم يكن فيه من عورة غير ثوبه الذي جعل منه ستاراً بين نفسه وربه.

اما البحر فعلمني ان الحياة متلاصقة بعضها ببعض تلاصق القطرة بالقطرة والموجة بالموجة. فموجة تتفقأ الآن على مرفإ بيروت لموجة يربطها كل ما في البحار من مياه بشقيقة لها تتململ في هذه الدقيقة على رمال هونولولو.

وعلمني البحر انه لا يزيد ولا ينقص لانه يعطي من نفسه بدون حساب . لذلك لا أزمة فيه على الاطلاق . وان ما يتصارع على وجهه من الامواج يصرع ابداً ذاته ولا يترك سوى زبد وعجيج. اما في الاعماق فلا صراع ولا زبد ولا عجيج بل سكينة ابدية؛ أما صنّين فعلمني كيف أزجّ مدنية الآلات والازمات في شق صخر من صخوره. وكيف اخنق

زفراتها بزقزقة عصفور. وأطهر انفاسها بعبير زهرة. وأقف عرياناً في حضرة الفنّان الأكبر فأرقب يده تنحت من الصخور تماثيل يترنح بمنظرها قلبي، وتنقش في الحقول رسوماً تتجنح بجمالها نفسي. فأصبح وكأنني الفنان وكل ما ابدعته ُ يداه ُ.

يا ابناء بلادي! لا يبهرنّكم برق يلعلع في عيون المدنية الغربية — انه لبرق ٌ ُخلّب. ولا يهولنكم رعد يزمجر في صدرها — انه لحشرجة الموت. ولا يحزننكم ان لا عَلم لكم يخفق في مقدمة اعلام الامم — فانني لست أرى بين تلك الاعلام ولا علماً لا أثر فيه للدم والاغتصاب والتهويل والارهاب.

أحبوا بلادكم لا بشفاهكم بل بقلوبكم. أحبوا بحرها. أحبوا جبالها. أحبوا تربتها بمعاولكم تحبكم ببقولها واثمارها. لقحوها بعصير أجسادكم تلقح أجسادكم بعصير العافية. باركوها بايمانكم تباركم بالمعرفة. قدّسوها بالامتثال للمشيئة التي تعمل فيها تقدّسكم بالحرية.

بلادكم بلاد عمل وسلام. فليكن ما تضيفونه الى خزينة السعادة البشرية لا آلات ولا مدرعات بل عملاً مثمراً وسلاماً منعشاً.

بلادكم بلاد وحي وجمال. فليكن ما تقدمونه ُ لاخوانكم الناس وحياً وجمالاً. وليكن عَلَمكم علم نور — علم هداية — علم محبة.

المعرفة والمدرسة

القيت في الحفلة السنوية لمدرسة « الجامعة الوطنيـة » في عاليـه – لبنان – اواخر حزيران سنة ١٩٣٢ .

لو سألتموني ان أحدّد لكم بكلمة واحدة غاية الانسان من حياته لقلت – المعرفة . ولو سألتموني ما الذي اعنيه بالمعرفـة لأجبتكم – معرفـة الانسان لنفسه . فالانسان بروحـه عالـَم تجمعت فيـه كل العوالم من منظورة وغير منظورة . فهي لا وجود لها الاّ فيه . وهو ان عرف ما فيـه عرف كل شيء . لذلك لا قيمة عندي لكل مجهوداته الاّ على قدر ما تدنيه من معرفة نفسه . ولا ثمن لما يلتقطهُ هنـا وهناك من المعلومات الحسّيـَّة الاّ اذا ترجمها الى معانٍ روحيةٍ .

لقد يستوعب الواحد منـا كل مـا توصّل اليهِ الناس من معلومات طبيعية او فنية او تاريخية او سواها . لكنهُ مـا لم يجد فيهـا فوانيس تنير لهُ زوايا نفسه المظلمة بقي بعيداً عـن المعرفة وكان مَثله مَثل رجل اضاع مفتاح بيتـه فراح يجمع

مفاتيح . واذا عاد بعد غربة طويلة لم يجد بين كل ما جمعهُ ولا مفتاحاً يفتح بهِ باب داره . فظلّ خارجاً وظلّ غريباً . ولم يكن نصيبه من المفاتيح التي جمعها سوى التعب والشقاء والحسرة .

ان المعرفة التي أكلمكم عنها لا تُنال في مدرسة او مدارس. ولا في فسحة معلومة من العمر – لا ولا في عمر واحد . بل نحن نلتقطها – اذا عرفنا كيف نلتقطها – في كل لحظة من وجودنا – في اليقظة والمنام ، في الموطن والغربة ، في الحياة والموت. فهي منبثّة في الكون انبثاث نور الشمس في كل شيء. ونحن لو كانت لنا عيون تبصر لأبصرنا النور حتى في الظلام الدامس . وفي افئدة الصخور . وفي اعماق البحار .

المعرفة كالله – في كل مكان . والذين يطلبونها في مكان دون كل الامكنة كالذين يطلبون الله في المعابد لا غير . فلا الله في المعابد وحدها ، ولا المعرفة في المعاهد العلمية فقط .

انهُ لَمن الحيف ان نتطلب المعرفة من المدرسة وحدها . لو كان ذلك في وسعها لأصبح الناس آلهةً في وقت قصير . كما انهُ من الجهل ان ندّعي للمدرسة ما هو أوسع من نطاقها . فنراها بحراً يغرف منهُ الطلاب المعرفة . ونراها أمّاً لا ترضعهم من اللبان الا ّ اصلحها لنموهم ولسعادتهم . ونراها ساحرة تقوّم

كل ما فيهم من اعوجاج وتصلح كل ما فيهم من فساد وتبدل كل ظلماتهم انواراً .

المدرسة كالقابلة – تستقبل المواليد من أرحام امهاتهم ولا تلدهم . واذا شئتم فهي كالدجاجة تحضن البيض لأيام معدودة ولا رأي لها على الاطلاق في الوان وأجناس الفراخ التي تنقف من البيض . بل كل ما عليها ان تهديها الى ما اهتدت اليهِ بالاختبار من موارد الرزق . وهكذا المعلم يأتيهِ الطالب ولا رأي له في ما اودعتهُ يد الحياة من اسرار ولا سلطة له لتغيير مجاري حياته المربوطة بمجارٍ لا تحصى . وكل ما عليهِ هو ان يهديه الى ما اهتدى اليهِ من الغذاء العقلي والروحي الذي قد يكون نزراً وقد يكون وافراً مثلما يكون صالحاً أو طالحاً . بل يكون عسلاً لطالب ، وسمّاً لآخر . وذلك لأن المعلم نفسه لم يهتدِ بعد الى المعرفة . فبينما هو يعلّم في مدرسته المحصورة اذا به يتعلم في مدرسة الحياة الكبرى . والمعلم الذي لا يتعلم من تلميذه لا يعلمهُ ؛ والمعلم الذي فات دور تتلمذه للحياة فات دور نفعه كمعلم ؛ والمعلم الذي لا يعرف نفسه أنّى له ان يهدي سواه الى نفسهِ ؟

لا تتطلبوا من المدرسة اكثر مما في وسعها ان تعطيكم . فالمدرسة المثلى هي كالتربة الصالحة ، والطالبون فيها كالبذور .

لكل بذرة طبيعتها ومشيئتها وهويتها . تلك بنفسجة ، وتلك اقحوانة ، وتلك شوكة ، وليس على الارض الاّ ان تقدم لها غذاءً طيّباً لتنبت البنفسجة بنفسجة خجولة فوّاحة ، والاقحوانة اقحوانة جميلة ، والشوكة شوكة قوية . اما ان تجعلوا الاقحوانة بنفسجة ، والشوكة أقحوانة ، فذاك من كرم الله وعدله مستحيل .

ايها التلاميذ ، ها أنا أتنبأ لكم ان بعض ما درستموه وستدرسونهُ هنا سيصبح يوماً ما عثرة لأرواحكم . فلا تستقيم لكم طريق الاّ بنبذه ؛ وان بعض ما تحسبونهُ اليوم عبئاً ثقيلاً ستجدون فيه اجنحة لأفكاركم ومفاتيح لمكنونات نفوسكم ؛ وانكم كيفما صفّقتكم رياح المعيشة لن يقرّ لكم قرار حتى تدركوا ان في الحياة مدرسة واحدة ومثالة واحدة ومعلماً واحداً . اما المدرسة فهي الانسان ، واما المثالة فهي الانسان ، واما المعلم فهو الانسان . لأنه من الحياة قطباها ومحورها .

انكم ان خبرتم من الكواكب سرّ تجاذبها وتدافعها لا تخبرون شيئاً ما لم تخبروا سرّ تجاذب الناس وتدافعهم .

وانتم اذا ذللتم العناصر كلها لا تذللون شيئاً ما لم تذللوا عتوّكم و كبرياءكم .

وانتم لو سُدتم العالَم بأسره لا تسودون شيئاً ما لم تسودوا شهواتكم واهواءَكم .

وانتم لو ساكنتم الافاعي ، وجاورتم السباع ، وآكلتم وشاربتم مجنّحات الجوّ لا تأتون أمراً عجيباً. لكنكم متى تعلمتم كيف تساكنون الناس وتجاورونهم وتؤاكلونهم وتشاربونهم دون ان تلحقوا بهم أذيّة ودون ان ينالكم منهم أذيّة حينئذ تكتشفون اول الطريق الى المعرفة . ولن تكتشفوا اولاً الطريق الى المعرفة ما لم تدركوا أمرين : أولهما ان الحياة شركة شاملة . وثانيهما ان الحياة دوائر محكمة فلا بدّ لكل ما يخرج من مصدر ان يعود اليهِ .

اما شركة الحياة فأعني بها ان كل ما في الحياة يخضع لناموس واحد ويتمم مشيئة واحدة ويعمل لغاية واحدة وان تنوعت الاشكال والوظائف . فليس لشيء او لأحد ان يدعي لنفسه اكثر من سواه .

اذا كان في بيت احدكم جرة من الخمر تنافس جرة الخل وتكبر عليها فليقل لها : خسئت . فلي قصد من جرة الخل لا تعرفينه ولولاها لكان بيتي ناقصاً .

واذا رأيتم عرشاً مذهّباً يلتفت بازدراء الى ما حواليهِ من الرياش، ذكّروه بالمكنسة وبالخرقة والصابونة ، فلولاها لما كان ما هو .

واذا رأيتم شجرة من التفاح تفاخر باثمارها ، ذكّروها بعصير

المزابل ونور الشمس ودموع السحاب وانفاس التراب .

كذلك ان سمعتم ذا علمٍ يتبهرج بعلمه ، او صاحب عضلات قوية يباهي بقوة عضلاتـهِ ، فقولوا الاول انَّ لأجْهلِ جاهل بينكم حصةً في علمهِ ، وللثاني انَّ لأضعفِ ضعفائكم قسطاً في قوّته .

اجل ، ان لكل انسان شركة في كل الناس . ولكل الناس شركة في اي انسان . كلنا شريك للمريض في مرضه . وللصحيح في صحته . وللعاقل في عقله . وللجاهل في جهله . وليس اضل ممن يكرم نفسه بتحقير سواه . او ممن يبحث عن سعـــادة نفسه دون سعادة الغير . مَن احتقر انساناً احتقر نفسه . ومن أبغض انساناً ابغض نفسه . ومن حاول ان يهضم حـق انسان لا يهضم الاّ حق نفسه . ما دام في النـاس جاهـل فالانسانية بأسرها جاهلة . وما دام على الارض شقي فالناس كلهم اشقياء . ان من ادرك ذلك أمن شر الناس واهتدى الى الخير في قلوبهم .

اما دوائر الحياة فكثيرة ، وهي دائرة ضمن دائرة ضمن دائرة ، تضمها دائرة المصدر الاعلى الذي ينبثق منه كل شيء واليه يعود كل شيء . ولو عرف الانسان انه مصدر ومرجع لصرف كل همه في حياته لتنقية ما يصدر عنه كيما يكون مـا يرجع اليـه نقيّاً . فكل شهوة تصدر عـن القلب ترجع اليه لا محالة — ان

خيراً فخيراً وان شراً فشراً. وكل كلمة يلذع بها الانسان اخاه تعود لتلذعه .

ومن هذا القبيل ليس اصدق من قولهم : « من حفر حفرة لأخيه وقع فيها . »

اقول لكم ايها التلاميذ ان من شارك الناس في نفسه أمن مساوىء نفسه ومساوىء الناس . واقترب من ربه وربهم . وإن من نقّى فكره وقلبه اصبح كالمنارة تذيع نوراً وسلاماً وطمأنينة . وانتم ان ادركتم ذلك وعملتم به لا خوف عليكم من الغرق في بحور الايام والليالي مهما طغت وأرغت وازبدت .

انني اؤمن بالشباب . اؤمن باندفاعه الجارف الى الحق والعدل . اؤمن بشوقه المحرق الى الجمال . اؤمن بعزيمته وحماسته في الوصول الى غايته . فاجعلوا المعرفة غايتكم القصوى . ومتى بلغتم آخر عقبة العمر وسألكم الوطن ماذا فعلتم من اجله » قولوا : لقد طلبنا المعرفة كيما نتحرر من انفسنا فنراك حرّاً وتخدمك أحراراً .

واذا سألتكم الانسانية ماذا فعلتم من أجلها ، قولوا : لقد شربنا دموعك بقلوبنا وطبَعنا ابتساماتك في ارواحنا . واذا سألكم ربكم حساباً عن الفسحة التي قسمها لكم من العمر ، قولوا : اللهمّ لقد طلبناك في انفسنا فأهّلنا أن نراك في كل نفس .

داء الادب

القيت في حفلة أقامها الشباب المثقف في صافيتا – بلاد العلويين – في ٢٣ ايلول سنة ١٩٣٢ .

حيثما توجهت في هذه البلاد الجميلة هبّت عليَّ نسمات مباركة من اليقظة الروحية التي تتمشى اليوم فيها . والنسمة التي هبّت عليَّ من ارواحكم تكاد تكون موجة تغمرني وتغرقني بما فيها من طيّب المشاعر وصادقها .

ما حلمت قط ليالي كنت وراء المحيط أضع كلمات سوداء على صحائف بيضاء أن تلك الكلمات ستكون لي اشعة تهديني الى قلوبكم . وأصابع اتلمس بها اشواقكم . وان الصحائف ستكون ابسطة من اثير الروح تحملني اليكم قبل ان يحملني البخار بسنين كثيرة وحين لم يكن من تعارف حسّي بيننا على الاطلاق . وانتم لو سألتموني عن اقصى ما ارجوه من الناس لأجبتكم : محبتهم . فأنا لا اطلب مالهم ، ولا جاههم ، ولا اعجابهم ، ولا تصفيقهم. وما دام لي من يحبني فأنا غني . وما دام

لي من أحبهم فأنا أغنى وأغنى .

تعرفون انني لا اعبأ بالسياسة وتقلّباتها اكثر مما اعبأ بغيوم تقنّع وجه السماء الى حين ثم تنجلي . غير اني سمعت البعض منكم يقول : بلادنا مصلوبة . وانا اقول : اني اقدّس المصلوب وأحب بلادي مصلوبة واكرهها صالبة . فللمصلوب ثوابه . اما الصالب فسيأتيه يومه .

وسمعت الآخرين يقولون : الغير يسرق منا خيرات بلادنا . وانا اقول : خيرٌ لبلادي ان تكون مسروقة من أن تكون سارقة . فللسارق وصمة السارق وعاره وعقابه . اما المسروق فمن ذا يدلُّ عليهِ باصبع الشك والتحقير ؟

وسمعت من يقول ان بلادنا منحطة متأخرة . فلهؤلاءِ اقول : ان بلاداً اذا جئتُ اقرع بابها وجدتهُ مفتوحاً لأرفع وأسبق من بلاد لا تفتح لي بابها مهما قرعت الاّ اذا كانت يدي مثقلة بالفضة والذهب .

اما وقد اجتمعنا هنا باسم الادب لا باسم السياسة فأنا محدّثكم قليلاً عن ديني الادبي :

لقد دعاني البعض هدّاماً . اجل انني لهدّام . غير انني أهدم لأبني . والذي أهدمهُ ليس كما يتوهم البعض ادباً قديماً . والذي أبنيه ليس ما يدعونهُ أدباً جديداً . فالجمال والحق – وهما

كل الادب – لا يشيخان ولا يتداعيـان ولا يقوى بشر على هدمهما . انما اهدم كل ما كان في نظري خلواً من الجمال والحق – قديماً كان ام جديداً – واساعد في تأييد كل ما يتناول حياته من معين الجمال الذي لا ينضب ، ومن اوقيانوس الحق الذي لا شواطىء له . انني اجلّ الجمال عن مساكنة الشناعة ، والحق عن مؤاخاة الباطل . لذلك فكل بنيـان شيد للباطل ، وان يكن جميل الصنع ، ليس جميلاً . وهدمه أولى لئلاّ يُضلّ الناس . ولا فرق في ذلك بين جديد وقديم .

ما أهدمهُ انما اهدمهُ لأسهّل الطريق لنفسي ولكل من كانت طريقهُ طريقي . وكل ما ابنيه انما ابنيه مساكن لنفسي. من وجد في مساكن نفسي مساكن لنفسه فأهلاً بهِ . اما الذي يجد مساكني باردة وعابسة وقاسية فلا حرج عليهِ لو ظلّ خارجاً.

من شاءَ ان يعطي فليكن اولاً على ثقة من أن في يده ما هو أهل للعطاء . أما اليد الفارغة فحذارِ من ان تمتد للاعطاء . لأن ما تعطيه ليس الاّ خيبة وفشلاً .

من شاءَ أن يحرّر فعليهِ اولاً ان يتحرّر . أما من كان عبداً لنفسهِ فحذارِ من أن يدعو الناس الى الحرية . لانهُ لا يقودهم الاّ الى عبوديته .

من شاءَ أن ينير فعليهِ اولاً أن يستنير . اما القلب المظلم

فحذارِ من ان يدعو الناس الى النور . لانهُ لا يدلُّهم الاّ على ظلماته .

وما داء الادب اليوم وفي كل يوم — في هذه البلاد وفي كل بلاد — الاّ أن الكثير من الايدي الفارغة ينادي : تعالوا خذوا ! والكثير من النفوس المستعبَدة يصيح : هو ذا طريق الحرية ! والكثير من القلوب المظلمة يهتف بالناس : اتبعوني الى النور !

لقد تفقدت في هذه الاثناء قسماً من ربوعكم وما فيها من الآثار القديمة . فزرت قلعة الحصن وبرجكم ، برج صافيتا . وكنت حيثما مشيت ، وكلما فسحت لخيالي المجال ، شعرت كأنّ الجيوش التي تألبت فوق هذه البطاح والهضبات تمشي معي . وكأنّ الشعوب التي تملكت هذه الارض لمحة من الزمن فما لبثت الارض ان تملكتها ، تسألني من أنا ولماذا أمتهن حرمة مساكنهم وأزعج سكينة لحودهم .

وكنت أجهد خيالي لأقرأ اخلاقهم في آثارهم . واستخرج من الفضاء رسوم ميولهم وشهواتهم وغاياتهم . واقتنص من الاثير أصواتهم . وأقول في نفسي : لو كان لهم متنبٍّ او ابو علاء ، لو كان لهم هوميروس او دانتي ، لما أجهدت خيالي مثل هذا الاجهاد . ولأبصرت وجوههم ولمست ميولهم وشهواتهم وغاياتهم . وسمعت اصواتهم في آثار ادبائهم .

إن آثاراً يتركها الانسان في الحجر تندثر باندثار الحجر . لكن آثاراً ينقشها الانسان في روح أخيه الانسان لباقية الى الأبد لأن الروح باقية الى الأبد .

والأدب الذي هو بحق أدب يجب أن يكون نقشاً في الأرواح لا غشاوة على الأبصار . فاطلبوا معي ان يكون لنا من أدبائنا رسل للروح لا حاكة للأقنعة المزركشة .

شركة الانسانية

مقتطفات من خطبة القاها في مأدبة في بيترومين – الكورة – لبنان – ١٥ تشرين الاول سنة ١٩٣٢ .

لقد أوليتموني منّة كبيرة . لا لأنكم أطعمتموني من زادكم – وزادكم طيّب . ولا لأنكم سقيتموني من خمركم – وخمركم لذيذة . ولا لأنكم استحسنتم جهودي الادبية – ولاستحسانكم قيمته عندي . بل لأنكم قد وسّعتم ذلك الباب في روحي الذي يدخل منهُ الناس . وضيقتم – بل كدتم تسدّون – الباب الذي يخرجون منهُ . فأنا ، ما دام في الارض انسان تضيق دونهُ روحي ، لست اهلًا لتكريم انسان .

***

ألا وسّعوا ابواب ارواحكم كيلا يظل أحد خارجاً . فإن رأيتم اعمى ، وكنتم مبصرين ، فاعلموا انكم عميان مثله ما لم تعيروه من بصركم بصراً . فما زالت طريقه مظلمة فطريقكم مظلمة . لأن طريقه وطريقكم واحدة .

واذا التقيتم مُقعَداً ، وكانت لكم قوة تسابق الريح ، فاعلموا انكم مُقعَدون مثله ما لم تعطوه من سرعتكم جناحاً . لأن محجتكم ومحجته واحدة . ولن تدركوا محجتكم حتى يدرك محجته .

واذا مررتم بأبرص ، وكنتم طاهرين ، فاعلموا انكم برصٌ مثله اذا ما املتم وجهكم عنهُ . اما اذا نقّيتموه بطهركم فكأنكم نقّيتم انفسكم من بَرَص خفي .

***

لا تبغضوا احداً من الناس . واذا كان لا بدّ لكم من البغض فأبغضوا كل ما في الناس من ضعف وإثم .

لا تبغضوا الشرير ، وأبغضوا الشرّ . لأنكم ان ابغضتم الشرير اصبحتم اشراراً مثله . اما اذا ابغضتم الشر فقد تقتلونهُ وتهتدون الى الخير .

لا تكرهوا الظالم ، واكرهوا الظلم . لأنكم ان كرهتم الظالم كنتم ظالمين مثله . وان احببتموه عرفتم العدل ورددتم الظالم اليه .

لا تهربوا من الجاهل ، واهربوا من الجهل . لأنكم عندما تهربون من الجاهل لا تهربون الاّ من انفسكم . اما هربكم من الجهل فهو اقتراب من المعرفة .

***

قبل ان تفتشوا عن فيلسوف او شاعر فتشوا عن رجل صالح .

وقبل ان تطلبوا واعظين بالحق فتشوا عن رجل يحيا حياة الحق .

وقبل ان تطلبوا من يرسم لكم الجمال بالكلام والالوان اطلبوا رجلاً يرسم الجمال بأعماله من يوم الى يوم .

نحن في حاجة الى مثال جميل اكثر منا الى رسوم جميلة .

اني رأيت الناس كالأزهار الشائكة : ان انت جئتها مغتصباً أدمتك . وان جئتها كالنحلة حاملاً اليها سلام الله ومحبة رفيقاتها واخواتها فتحت لك قلوبها وأعطتك كل ما فيها من حلاوة .

فاحملوا معي سلام الله للناس ، ومحبة الناس للناس .

ينابيع الالم

القيت في « النادي الادبي » بدمشق في
كانون الثاني سنة ١٩٣٣ .

يا أهل دمشق — يا أهلي :

دعوتموني لتكرموني . فكنتم أكرم مني وأحسن ظنـّاً بي من نفسي . فأنا ما سمعت لساناً يمدحني حتى سمعت الف لسان يؤنبني . لانني ان تكن لي أذن تسمع تهاليل الناس فلي آذان تسمع زفراتهم . وان تكن لي عين تبصر ابتساماتهم فلي عيون تبصر عبراتهم . وان يكن لي قلب يرقص في اعراسهم فلي قلوب تتفتت في مآتمهم . ومـآتم الناس ابـداً تبكـّت اعراس الناس . وعبراتهم تضحك من ابتساماتهم . وزفراتهم تهزأ بتهاليلهم . فكأني بهم يمشون بقلوبهم على شظايا من زجاج . و كأني بأكثر ما يعظمونه من اعمال افرادهم لا يتعدى استبدال شظية بيضاء بحمراء . او صفراء بخضراء . اما آلامهم فهي هي . فالالم يتصدر مجالسهم ، ويترأس موائدهم ، وينـام في اسرّتهم ؛ والالم يطبخ ما يأكلون ، ويستقطر ما يشربون ، وينسج ما يلبسون ؛ والالم

يتخطر في ازقتهم ، ويبيع ويشري في حوانيتهم ، ويزرع ويحصد في حقولهم ، والالم يعلّم في مدارسهم ، ويكرز في معابدهم ، ويعشش في مساكنهم .

لعلكم لو فتشتم الارض لما وجدتم غير الالم جامعة تجمع الناس كلهم على السواء . فهم لا يجمعهم دين ، ولا علم ، ولا أدب ، ولا جنس ، ولا لغة ، ولا نزعة واحدة سماوية او ارضية . اما الالم فهو السلك الخفي الذي تنتظم فيهِ كل قلوبهم انتظام الخرز في القلادة . وهو العلَم الذي يخفق فوق كل اعلامهم . والفضاء الذي تسرح فيهِ كل آمالهم وأهوائهم . والميزان الذي يستوي في كفتيه غالبهم ومغلوبهم . وعالمهم وجاهلهم . وضعيفهم وقويهم . وفقيرهم وغنيهم .

ما كنت لأحدّثكم عن الالم ، وفي مثل هذا الاجتماع ، لولا اني اراه عدوّ الانسانية الالد ومخلّصها الاكبر . فهو عدوّها لانهُ ابداً يعكر عليها كل ينبوع تحاول ان تنهل منهُ السعادة . وهو مخلّصها لانهُ ابداً يذكّرها بأن سعادتها في غير تلك المناهل . ولن يهتدي الانسان الى ينابيع آلامه فيعرض عنها والى ينبوع خلاصه فيقبل عليهِ حتى يدرك ان تلك وهذا تتفجر منهُ ، وتجري فيهِ ، وتنتهي اليهِ . فجحيمه في نفسه . وفردوسه في نفسه . وهو ابداً يحصد ما يزرع . واذ انهُ يزرع اوهاماً تراه

لا يحصد الاّ اوهاماً فيتألم لان كل وهم ليس الاّ ينبوع ألم .

ان الوهم الذي تتفرع منهُ كل أوهام الانسان هو اعتقاده ان لهُ ذاتاً منفصلة عن كل ذات، وحياة مستقلة عن كل حياة. ولو سأل الانسان نفسه يوماً : « من أنا ؟ » لما تمكن من اقامة حد بينهُ وبين شيء .

أوَلستم ترون انكم اذا ما شربتم قطرة من الماء فكأنكم شربتم البحار كلها ؟ لان لكل قطرة في كل بحر صلة بالقطرة التي تشربون . واذا ما اكلتم ثمرة فكأنكم ادخلتم الى جوفكم الحياة بأسرها. لان كل ما في الحياة قد تعاون في تكوين تلك الثمرة. واذا ما ابصرتم مذنَّباً هائماً في الفضاء فكأنكم أبصرتم كل ما في الفضاء . لان الفضاء هو كف الله القابضة على كل شيء واقصى ما فيها ملتصق بأدنى ما فيها . واذا ما صافحتم انساناً فكأنكم صافحتم كل انسان ، من آدم حتى آخر آدمي يمشي على سطح هذه الارض . لان كل انسان يحمل في نفسه كل الناس .

وهكذا فكيفما انقلبتم تناولتم من الحياة ما يستحيل عليكم فصله عن سواه وعنكم . ووجدتم انكم في كل شيء ، وان كل شيء فيكم ، وانكم لا يحصركم مكان ولا يحدكم زمان. فاذا كنتم ، وانتم مقيدون بحواسكم ، يتعذر عليكم ان تقيموا فاصلاً بين محسوس ومحسوس، فكيف بكم لو انطلقتم من عالم الحس الى عالم الروح ؟

في ذلك العالم – عالم الروح – يستحيل عليّ وعليكم ان نقيم حدوداً وفواصل . اذ ليس هنالـــك شيء له شكل او وزن او قياس . وليس هنالك « انا وانتم »، بل هنالك كلية شاملة لا تتجزأ ولا تتقسم . فما مَشَتْ في اجسادكم روح الاّ مَشَتْ في جسدي . ولا دقّ لـكم نبض الاّ سمعته في قلبي . فما نحن ، وان تنوّعـت مظـاهرنا ، الاّ كالانابيب في الأرغن ، نجيب بأصداء مختلفة اما الهواء الذي ينفخ فينا فواحد ، واللحن الذي نعطيهِ واحد ، واليـد التي تعزف علينا واحدة . ومـا انباض الحياة المتعددة الاّ نبض واحد لان مصدرها قوة واحدة .

فأنتم اذا ما أطربكم خرير جدول فانما يطربكم خرير الحيـاة في داخلكم لا في الجدول . واذا مـا أبهجكم منظر مرجٍ زاهٍ فانما يبهجكم زهو الحياة في قلوبكم لا في المرج . واذا ما أثملكم عبير زهرة فانما يثملكم عبير الحياة فيكم لا في الزهرة . وبالعكس ، فأنتم ما كرهتم شيئـاً الاّ كرهتم فيهِ انفسكم ، ومـا هربتم من شيء الاّ هربتم من أنفسكم . لان الحيـاة التي فيكم هي في مـا تكرهون . والجوهر الذي فيكم هو في الشيء الذي منه تهربون .

اني رأيت الناس يرهنون قلوبهم لـلألم ، وافكارهم للشك ، وحياتهم للموت ، لانهم في كل ما يفعلون يحاولون إحياء ما لا حياة له وإماتة ما لا حياة لهم الاّ به . ورأيت مع الجامعة ان ذلك

« باطل الأباطيل وقبض الريح ».

اما الذي لا حياة له فهو الذات المنفصلة عن الله. واما الذي لا حياة الا به فهو الله نفسه. ولكم في سفر التكوين أجمل رمز الى ذلك. فالانسان الاول الذي كان واحداً مع الله يماشيه ويجالسه ُ ويحادثه ُ في جنة عدن، توهم بعد ان أكل من الشجرة المحرَّمة انه ُ غير الله. فهرب من وجههِ واستتر بأوراق التين. وما اوراق التين هذه الا رموز الاوهام التي اخذ الانسان يعزز بها وهمه الاكبر. واعني ذاته المنفصلة عن الله، والتي لا كيان لها على الاطلاق. اذ لا وجود لشيء الا ضمن علة الوجود.

منذ ذاك الحين راح الانسان يحيا بما فيهِ من الله ويموت بما فيه من وهمهِ. فهو خالق الموت. وحاشا من لا يموت ان يكون علة الموت. وعندما خلق الانسان الموت لنفسه خلق الموت لكل ما يتناوله ُ بذاتهِ المائتة. اما سبيله الى الحياة ففي نكران ذاته الموهومة او في نزع اوراق التين عن ذاته الحقة التي هي الله.

في هذا الزمان الذي كثرت علومه وفنونه، وفلسفاته واختراعاته، والذي لسبب أجهله يدعونه « عصر النور »، لقد اصبح من يجرؤ ان يتكلم عن الدين وعن الله في خطر من تهكم الناس. ولكم سمعت ابناء هذا العصر يقولون، في هذه البلاد وفي سواها، ان بلية الناس في كثرة اديانهم.

اما أنا فأقول لكم ان بلية الناس في هذه البلاد وفي كل بلاد انما هي في قلة دينهم. فهم قد نبذوا اديانهم او تعلّقوا منها بالقشور وصمّت مماحكات اللاهوتيين وسفسطات المتدينين آذانهم عن اصوات الانبياء الذين أسسوا اديانهم. ولو فهم ذو دين دينه لما ابغض ذا دين آخر. لان الاديان في جوهرها واحد. فكلها يقول بأن علة الوجود واحدة لا تتجزأ ولا تحدّ. وان كل ما في الاكوان فيضان منها فهو مثلها لا يتجزأ ولا يحد. وان الانسان الذي جزأ نفسه فجزأ معها كل شيء سيبقى هدفاً للآلام بأنواعها حتى ينكر ذاته المجزأة ويحيا بذاته الموحدة التي هي مع الله ومنهُ وفيهِ.

ما توجعت للناس يتألمون قدر ما اتوجع لهم، والألم عدوُّهم الألد، يتحاسدون ويتنازعون ويتناهشون بدلاً من ان يتكاتفوا لمكافحة عدوِّهم المشترك. تقولون لي: «بلى. فما نحن في علومنا – لاسيما في الطب – غير يد واحدة في مقاومة الألم.» اما انا فأقول لكم ان امراض الجسد ليست الاّ اعراضاً لأمراض الروح. فأنتم ان داويتم بالعقاقير صداعاً في الرأس فبماذا تداوون صداع عاشق خانه معشوقه؟

وأنتم ان تخلصتم من ضرس مسوس باقتلاعه فكيف تقتلعون قلباً نخره سوس الحسد او البغضاء او الخيبة؟

وأنتم ان دخلتم بمبضعكم جوف الانسان وبترتم منه الزائدة

المعوية فلماذا تدخلون روحه لتبتروا منها زوائد الوهم والخوف والهم ؟

لعمري ان كل ما نلجأ اليه من الحيل للخلاص من الألم ليس الا ضروباً من التخدير. فنحن ما زلنا هاربين من انفسنا سنبقى هاربين من الألم الى الألم . ومن الموت الى الموت .

من تعلّق بذاته المائتة أضاع ذاته الحية . ومن أنكر ذاته المائتة وجد ذاته التي لا تموت . ومن وجد ذاته التي لا تموت وجد الحياة كلها فيها . فنكران الذات هذا انما هو تثبيت الذات . لانه لا يعني نكران شيء في الوجود بل تمديد الذات الى ان لا يبقى في الوجود ما هو خارج عنها . وهو لا يعني كره الذات بل محبة الذات الكائنة في كل شيء .

لذلك اقول لكم انكم ان شئتم الخلاص من الالم فعليكم ان تحبوا ذواتكم . غير انكم ان احببتم كل ما في الكون الا دودة واحدة فأنتم ما برحتم تكرهون ذواتكم بقدر كرهكم لتلك الدودة . وسيبقى لكم في كرهكم ينبوع ألم . ولن ينضب هذا الينبوع حتى ينضب كرهكم .

وأنتم ان تحررتم من كل شيءٍ سوى عصفور في قفص فأنتم عبيد لذلك العصفور ولكم فيهِ ينبوع ألم . ولن تتحرروا منه حتى يصبح طليقاً منكم .

وانتم ان صلّيتم كل حياتكم ولم ينطق لسانكم الاّ بلعنة واحدة فلكم في تلك اللعنة ينبوع ألم . لانكم لم تلعنوا الاّ انفسكم . ولن تنعتقوا من تلك اللعنة حتى تحوّلوها الى بركة .

وانتم ان انصفتم الناس كلهم وظلمتم طفلاً واحداً فلكم في ظلمكم هذا ينبوع ألم . لانكم لم تظلموا الاّ انفسكم . ولن تتخلصوا من ظلمكم حتى تنصفوا .

اما متى اقتبلتم الحياة كلها مثلما تقتبل البحار انهارها ، والارض اثمارها ، فحينئذٍ اذا ذبحتم لتأكلوا كانت ذبيحتكم قرباناً تقدمهُ نفسكم لنفسكم . واذا ما زرعتم لتحصدوا كان ما تزرعون وما تحصدون خلواً من الشوك والزوان . واذا هتفتم : « يا اخي » عاد هتافكم اليكم من فم كل انسان . واذا ناديتم الحياة بصوت واحد أجابتكم كل أصوات الحياة .

وحينئذٍ كانت الارض أرضكم ، والسماء سماءَكم .

العالم الباطني

القيت في الحفلة السنوية للمكلية
الارثوذكسية في حمص ، اواخر حزيران
سنة ١٩٣٣ .

في مثل هذه الايام من كل سنة تفيض من عيدان منابر المدارس سيول من الخطابة يخيّل الى من يسمع عجيجها ، ولو عن بعيد ، انها لن ترتد عن الارض الا وقد طهرتها من كل أدرانها ولقّحتها بلقاح حياة جديدة لا مجال في احضانها الا للجمال والحق والطمأنينة الابدية . غير ان العام يزدرد العام ، والجيل يدفن الجيل ، والارض ما تبرح تنبت العوسج والبنفسج . والمدارس ما تفتأ تستقبل جيوشاً من الجياع والعطاش الى المعرفة لتودّعهم بعد حين وهم اشد جوعاً وعطشاً من ذي قبل . والخطباء ما يزالون يخطبون – وفي ذمة الفضاء الرحب ما قالوا وما يقولون !

من المبتذلات التي يرددها خطباء المدارس على مسامع التلامذة المنتهين انهم سيخرجون من ميناء المدرسة الامين الى

بحر العالم الصاخب حيث الحياة كفاح . وحيث الفوز للقوي . وانا كذلك اقول لشبان هذه المدرسة المنتهين :

أجل ، ان العالم لبحر صاخب – لكنكم ذلك البحر . والحياة كفاح – لكنكم المكافِحون فيها والمكافَحون . والغلبة للقوي – لكنكم الغالبون والمغلوبون . فما العالم – والمدرسة بعض منهُ – الاّ مرآة تريكم ما ظهر وما استتر منكم . فحيثما وجدتم شرّاً فتشوا عنهُ في انفسكم . وحيثما وقعتم على خير فتشوا عنهُ في انفسكم ايضاً . لأن عيناً لا شناعة فيها لا تبصر الشناعة ولن تبصرها . فهي كعين الرضا « عن كل عيب كليلة » وكعين المحبة تبصر في القرد غزالاً وفي الاساءة احساناً . كذلك لا يجد الغش منفذاً الى قلب لا غش فيهِ . ولا تلقي الرجاسة مرساتها في نفس لا رجاسة فيها .

كلما جنح فكري الى مثل هذه التأملات تذكرت حكاية رواها لي صديق حمصي عن بدوي دخل المدينة للمرة الاولى في حياته . وكان طاوي البطن . فمرّ بمحل تفوح منهُ رائحة المأكولات الشهية ورأى في مقدمته اطباقاً من الحلوى ورأى الناس يدخلون فيأكلون ثم يخرجون فقال : « والله ان صاحب هذا البيت لرجل كريم ومضياف كبير . » ودخل فأكل وشرب حتى التخمة ثم سأل عن صاحب البيت ليشكر لهُ ضيافتهُ فطالبه

بالثمن . واذ لم يفهم البدوي قصده لانه ُ لم يكن يعرف المال وقط لم يدفع ثمناً لضيافة ، ساقه ُ صاحب المطعم الى القاضي . وهذا حكم عليهِ بالتشهير . فأركبوه حماراً جَرِباً وجعلوا وجهه ُ نحو ذنب الحمار وارسلوا امامه طبّالاً وراحوا يطوفون بهِ شوارع المدينة والناس يصفقون ويصفرون ويقهقهون تهكماً عليهِ . واذا هو على ذلك مرَّ بهِ بدويّ من عشيرته وسأله عن معنى ذلك المهرجان فأجابه ُ بلهجته البدوية ووجهه ُ طافح بالبشر وعيناه تبرقان ببريق الغبطة التي ما بعدها غبطة : « والله يا خوي أكل محاش . وركب جحاش . ودقّ يا طبّال دق ! »

ان نية ذلك البدوي الصالحة نازلت وحدها مئات من النيات الطالحة فدحرتها بغير عناء . وذاك لانها قابلتها بمرآة صلاحها الصافية فانعكست صافية صالحة . فبان تصفيقها المتهكم كما لو كان تهاليل اكرام . وانقلب صفير سخريتها الى زغاريد محبّة . حتى اذا كان هنالك من سهام تهكم وسخرية فقد تكسرت كلها على درع نية البدوي الصالحة وعادت شظاياها فنشبت في افئدة الذين راشوها .

عجيبة هي كيمياء الروح . فكم من قلب تمرّون بهِ وتقولون له : اسعد الله صباحك فيجيبكم :

« لا اسعد الله صباحكم ولا مساءكم . » لأن المرارة المتفشية

فيهِ تحوّل حلاوة سلامكم مرارة نقمة . وآخر تطرحون فيهِ لعنة فيردُّها اليكم بركة . لأن المحبة السائدة فيهِ تجعل من لعنتكم بركة . وكم من قلب تزجّون فيهِ شوكة فينبتها لكم زهرة . وآخر تُلقون فيهِ حبة من العنب فيردُّها اليكم حُمَة عقرب .

اذا شئتم ان يعود سلامكم سلاماً اليكم ، وبركتكم بركة ، ومحبتكم محبة ، فعليكم بتفقد العالم الذي هو انتم لتنبذوا منه كل ما ليس يأتلف بطبيعته مع السلام والبركة والمحبة . وعندما تتفقدون عالمكم ستجدون فيهِ عجائب وغرائب ومكنونات كثيرة قد لا تحلمون بها . واني لمخبركم عن بعضها :

ستجدون في عالمكم ذلك اقزاماً في ثياب جبابرة . لهم ارجل كأرجل الجبابرة لكنها من خزف ، وسواعد كسواعد الجبابرة لكنها من خشب ، وألسنة كألسنة الجبابرة ولكنها من مطّاط . اولئك الاقزام هم كبرياؤكم وذلّكم وادعاؤكم المعرفة وانتم عنها بعيدون . ولن تعرفوهم اقزاماً حتى تجرّدوهم من ثيابهم . ومتى عرفتموهم فاذبحوهم وطهّروا ايديكم من دمائهم . فأنتم اقزام ما زلتم ترون انفسكم ارفع من الناس او احط من الناس . وانتم جبابرة عندما تدركون ان الله الذي فيكم هو في كل انسان .

وستسمعون ثعابين تغرّد كالبلابــل ، وستنسيكم عذوبة اغاريدها الموتَ الذي في انيابها ، فتجملون لها من قلوبكم اقفاصاً ، ومن دمائكم شراباً ، ومن لحومكم غذاءً . تلك الثعابين هي شهواتكم الدنيئة واغاريدهـا هي الاوهام التي تجمّلونها بهـا كيما تظهر في اعينكم كما لو كانت من مجنّحات الفردوس لا من زحّافات جهنّم . وستبقى سمومها ترعى في قلوبكم ما دامت اغاريدها تسرح في آذانكم .

وستبصرون سلاحف تتمرّغ في الاوحال ولهـا أجنحة كأجنحة النسور . هي افكاركم التي تولد وتموت في اوحال المعيشة . والأجنحة أشواقكم الجامحة الى الفضاء الفسيح . وستمر بكم حالات تقولون فيها : يا ليتنا سلاحف ! وأخرى تقولون فيها : يا ليتنا نسور ! وستبقون لا سلاحف فتعرفون ولا نسور فتحلّقون الى أن يتغلب النسر فيكم على السلحفاة .

وستلتقون عمياناً يقودون مبصرين ولا يعثرون . ومبصرين يقودون عمياناً من حفرة الى حفرة . امـا العميان فايمانكم النيّر . وامـا المبصرون فشكوككم المظلمة . وستشتهون احياناً لو كنتم عمياناً . وأحياناً لو كنتم مبصرين . وستظل طريقكم سلسلة محافر ومعاثر حتى يتخلى مبصروكم عن القيادة لعميانكم .

وستعثرون على جماجم كثيرة مصطفّة على شاطىء البحر

وقائلة فيما بينها : « ان هذا البحر يحرمنا لذة النوم . ولسنا نرى نفعاً من وجوده . فتعالوا نرجمه بالحجارة . » ذلك البحر هو الحياة . والجماجم حواسكم القاصرة عن الخوض فيهِ لسبر غوره وتفهُّم اسراره ، فلا تسمع منهُ الاّ هديره . ألا علـّقوها بحجارة ثقيلة واطرحوها في البحر ، فهي لن تعرفهُ حتى تغرق فيهِ .

وستلتقون عند كل عطفة من طريقكم رهباناً كثيرين على عيونهم أقنعة كثيفة ، وفي ايديهم سبحات طويلة ، وعلى ظهورهم مصابيح مشعشعة . وسيقول لكم كل واحد منهم : اتبعوني فأنا اعرف الطريق. أولئك الرهبان هم مذاهب العالم . والاقنعة على عيونهم هي اقنعة التعصب . والسبحات في ايديهم هي الترّهات التي يتلهون بها عن لباب الدين . والمصابيح المعلـّقة بظهورهم هي الحقيقة التي فاضت عليهم من ارواح انبيائهم والتي لا ينيرون بها ولا يستنيرون . فحذارِ من ان تتقنعوا بأقنعتهم او تسبّحوا بسبحاتهم . اما المصابيح التي على ظهورهم فاستنيروا بنورها . فأنتم عندما تبصرون الحقيقة في مذهبكم تبصرونها في كل مذهب . وما زلتم تنكرونها في مذاهب الغير فاعلموا انكم عميان عنها في مذهبكم .

وستصلـّون من أجل اشياء كثيرة ولا تنالونها . وستنالون اشياء كثيرة تطلبون دفعها عنكم . فتقولون : لا عدل في الارض

ولا الــه في السماء . ألا فاعلموا ان الحياة فيكم لا تعطي ولا تأخذ الا حاجتها ، وانكم عندما تطلبون امراً بشفاهكم او بقلوبكم ولا تنالونه فذاك لأن في ارواحكم ملائكة كثيرين يصلّون صامتين لخلاصكم مما انتم طالبون . وعندمـا تنالون عكس مـــا تطلبون فاعلموا ان في اعماقكم قوًى كثيرةً تطلبـهُ وأنتم غافلون . ومن ثمّ فلستم مستقلين في مـا تنالون ومـا لا تنالون . فما وُلدتْ لغصنٍ ثمرةٌ الا احتفت بولادتها الشجرة كلها . ولا يبست شجرة في غاب الا مشت جنازتها في كل اشجار الغاب .

وستقولون اذا ضاقت بكم بقعة من الارض : انها لأرضٌ مصخرة ومشوكة وهي تخنق اثمارنا في المهد . فلنرحل الى ارض لا صخور فيها ولا اشواك – وعندما تقتلعون جذوركم لتدفنوها في تربة بتــولٍ ، لا تبقرون الارض بمعـاولكم حتى تبصروا جذوركم واشواككم وصخوركم قد سبقتكم اليها . لانكم حيثما انطلقتم لا تأخذون معكم غير انفسكم . وما تهربون منهُ هنا تلاقونهُ هنــاك إلا اذا طردتمـوهُ من نفوسكم واوصدتم كل ابوابها في وجهه الى الابد ، وحينئذٍ كنتم انقياء هنـا وفي كل مكان ، وكان لجذوركم غذاءٌ في كل تربة .

ألا تعلـّموا منذ الآن ان ترودوا عوالم ارواحكم . فآفاقها

لا تُحدّ . وعجائبها لا تُعدّ . وما العالم الخارج عنكم غير خيال العالم المنطوي فيكم . فان شئتم ان يكون عالمكم الخارجي جميلاً كحّلوا اعينكم ببرود الجمال ؛ وان شئتموه طاهراً فاغسلوا ايديكم بماء الغفران وعطروها بشذا المحبة ؛ وان شئتموه فسيحاً فاتخذوا لارجلكم أجنحة من الخيال الحرّ ؛ وان شئتموهُ كاملاً فأضرموا في قلوبكم نار الايمان الحي .

جناحا البشرية

ألقيت في الحفلة السنوية لمدرسة البنات
الارثوذكسية في حمص ، اواخر حزيران
سنة ١٩٣٣ .

الرجل والمرأة — جناحا طائر واحد هو البشرية . وكفّتا ميزان واحد هو النظام السرمدي . واقنوما كائن واحد هو الله . فما صفقت البشرية بجناح الاّ صفق اخوهُ معهُ . ولا هَوَتْ كفّة الرجل يوماً الاّ هوت في الحال كفة المرأة الى مستواها . او ارتفعت كفة المرأة الاّ ارتفعت كفة الرجل فوازنتها . لا ولا دق قلب الله في انباض الرجل الاّ دق في انباض المرأة . فهما لحم واحد ، ودم واحد ، وعظم واحد ، وروح واحد .

اقول ذلك وكأني اقرأ في افكاركم — لاسيما في افكار السيدات — ما معناه :

« انك لو سألت التاريخ لكذّبك . والارض لخذلتك . والسماء لضحكت منك . فالمرأة كانت ولا تزال مظلومة من الرجل . وحظها من الحياة كان وما يزال اقل من حظه .

لو كان لك ان تتمشى في سراديب العصور الخالية لغمرتك امواج من الدموع والزفرات – هي دموع وزفرات سبايا الحروب وأراملها . والحروب لا تشنّها الاّ مطامع الرجل الغشيمة .

ولو كان لك ان تكشف عن صدر الارض لوجدت فيه كلوماً كثيرة لمّا تندمل بعد – هي لحود وئيدات البشرية اللواتي زوّجهن آباؤهن من القبر قبل ان تطلقهنّ الحياة . واللحود هذه حفرتها يد الرجل الاثيمة .

ولو كان لك ان تستجوب السماء لأجابتك بألسنة من نار – هي الالسنة التي التهمت اجساد الملايين من النساء ، والحياة تختلج فيها ، مع اجساد رجالهنّ ، وقد امتصّ الموت منها الحياة . والنيران تلك أضرمتها يد الرجل القاسية . »

اني لأقرأ ذلك – وأكثر من ذلك – في أفكاركم . وأعود فأقول لكم ان تاريخ البشرية هو غير ما يدوّنهُ الناس باسم التاريخ . فالناس لا يبصرون من حياتهم الاّ ظواهرها . ولا يسجلون من حوادثها الاّ القليل من سطحياتها . فماذا عساهم يعرفون عن ماضي البشرية السحيق ، وعن حاضرها الذي كان في ماضيها ، وعن مستقبلها الكائن في حاضرها ؟ ماذا عساهم يعرفون من احلامها المقنّعة التي تدبُّ في سكينة الليل وجلبة

النهار ، وافكارها الخفية التي تنساب في مجاري الفضاء الأوسع ، وشهواتها الجشعة التي ترعى صامتة في قلوبها ؟ وما زالوا يجهلون كل ذلك فهم يجهلون الينابيع السرية التي تنبثق منها أعمال البشرية الظاهرة ، ويجهلون قصد البشرية من أعمالها وقصد الحياة من البشرية . لذلك فلا تاريخهم تاريخ ولا حجتهم حجة .

غير ان ما يجهلهُ الناس لا تجهلهُ الحياة . فهي تسجل كل ما يغفلون وما يسيئون تسجيله . وسجلّها كتاب كامل ، دفته الواحدة الأزل والأخرى الأبد . وليس يحسن القراءة فيه الا من تفتحت عين ايمانه . وان شئتم فقولوا — عين خياله . فالايمان والخيال توأمان بل هما واحد . وكلاهما أبعد مرمى وأجلى بصراً بما لا يقاس من العقل المدعي بغروره ومن ابنه الحبيب الذي أسماهُ المنطق . فالعقل اذا تسامى كان خيالاً . والخيال اذا انحطّ صار عقلاً . والمنطق اذا لانت مفاصله صار ايماناً . والايمان اذا اصيب بتصلّب في شرايينه صار منطقاً .

وهكذا فالذي يقرأ سجل الحياة بعين ايمانه لا بدّ من ان يرى ترابطاً يفوق العقل والمنطق بين كل اجزائه . فبين اول حرف في الفاتحة وآخر حرف في الخاتمة صلة السبب والمسبب او العلة والنتيجة . ومثلها بين كل حرف من حروف ذلك المصحف الرهيب وكلماته ومقاطعه وفصوله . وعندئذٍ لا يصعب على

القارىء ان يبصر في قبر الوئيدة قبر الوائد – فما كل من تحت التراب اموات ولا كل من فوق التراب أحياء . او ان يرى يد الوائد القوية ويد الوئيدة القاصرة تحفران القبر معاً . فما مات انسان من يد انسان الا كان الاثنان شريكين في تلك الميتة . وما انقضّت صاعقة على بيت فهدّته الا كان للبيت في هدّه ما للصاعقة .

لو جئت أستغفر المرأة عن كل مآثم الرجل ضدها لقضيت عمري مستغفراً ولم أبلغ نهاية . ولو رحت أستغفر الرجل عن كل مساوىء المرأة اليه لقضيت عمري كذلك مستغفراً ولم أبلغ نهاية . غير اني لست ارى ذنباً استغفر عنه المرأة الا رأيت من العدل ان استغفر عنه الرجل . ومن ثمّ فكم ذنب نطلب اليوم عنه المغفرة وغداً نفاخر به كمأثرة .

من اجل ذلك اقول لكم ان كل مقارنة بين الرجل والمرأة بقصد التفضيل والترجيح هي ضربٌ من البلاهة . وكل تحاسب بينهما بقصد تثبيت رصيد حساب لها او له هو عبث وفضول وتعكير مياه عكرة . فالمجال مجال اخذ بغير حساب وعطاء بغير حساب . لا مجال لوم وعتاب وتشنيع وتقريع .

والآن لو سألتموني رأيي في ما يدعونه « حرية المرأة » وفي الجهود العظيمة التي تبذل في سبيلها لأجبتكم انها ترتكز على وهم . والوهم هذا هو ان الرجل حر والمرأة مستعبَدة . وكلاهما

في نظري ، مـــا دام مقيداً بالآخر ، حرّ بحرية رفيقه وعبدٌ لعبوديته . او َتحسبون حارس السجن اكثر حرية من سجينه؟ انهُ لسجين مثله وان لم يقيـد بسلاسله . ام تحسبون ان اعمى يرافق مبصراً ويظل اعمى ؟ انـهُ ليستمد من بصر رفيقه بصراً وان لم يكن في حدقتيه نور .

لو كان الرجل حرّاً لما احتاجت المرأة الى مطالبته بحريتها ، لأن الحر لا يستأثر بحرية احـد . والذي اهتدى الى الحرية لا يبقى له من شاغل الاّ هداية الغير اليها . امـا الذي يدعي ان حرية غيره في قبضته فلو فتحتم قبضته لما وجدتم فيها الاّ عقارب العبودية . او َتلك العقارب هي « الحرية » التي تستعطيهـا او تبتزها المرأة من كف الرجل ؟

لست اقول للمرأة التي تطالب بالسفور ان ترضخ لحجابها — فما الحجاب الاّ تهكم من الرجل على خالقه . واقرار منه بأن الحيوان فيهِ ما يزال سيد الانسان . انما اقول لها ان الحرية لا تُبصَر بالعين السافرة . وقد تبصرها عين مقنّعة . وان الحجاب الذي يسترهـا عن الناس ليس من نسيج الايدي ولا يمزق بالايدي . . . وهو على بصيرة الرجل السافر مثلـه على بصيرة المرأة المحجبة ، فعليها وعليهِ ان يعملا معاً على تمزيقهِ .

ولا اقـول للمرأة التي تطلب حق التصويت أنْ لاحقّ لها

بذلك . فما دام للرجل صوت في امر من الامور فمن الحيف ان لا يكون للمرأة مثله . انما اقول لها ان الحرية لم ينلها احد بعد بالتصويت . وان الرجل لم يذع بصوته حتى الآن الا عبوديته . فعليها وعليه ان يسلكا الى الحرية سبيلاً غير سبيل التصويت .

ولا اقول للمرأة التي ترغب في الجلوس مع الرجل على منصة القضاء ، او في مجالس التشريع ، او في دسوت الحكم ان لا حقّ لها ان تقضي وتشترع وتحكم . انما اقول لها ان الرجل الذي تطالبه بحريتها قد اشترع وقضى وحكم منذ اجيال لا تحصى وحتى اليوم لم يهتدِ الى نظام يقيه الجوع والفاقة وويلات الحروب ويكفل له سلامته وحريته . بل انهُ كلما كثرت شرائعه كثرت قيوده ومخاوفه . وكلما ازداد حكامه ازداد اسياده وظلاّمه . فعليها وعليهِ ان يسعيا بقلب واحد للتخلص من قيود المخاوف وسيادة الاسياد وظلم الظالمين بطريق غير طريق الشرع والقضاء والحكم .

اما الطريق تلك فواحدة ليس الاّها . هي طريق الايمان المبصر الذي قلت لكم انهُ يتعدى حدود العقل وابنه المنطق . لكنها طريق لا يستطيع ان يسلكها الاّ الذين اعدّوا من قلوبهم مساكن طاهرة للحياة . اما الذين قلوبهم ما برحت مراعي للضغائن ، وأعشاشاً للشهوات ، ومغاور للأحساد ،

وملاجيء للمخاوف فلهم في كل خطوة عثرة وفي كل عثرة انّة. ولا تقلّ عثراتهم وتنقطع انّاتهم حتى تخفّ احمالهم. ولا تخفّ احمالهم حتى يحرقوها في اتون المحبة الشاملة. واذ ذاك فأرجلهم اجنحة. وأكفّهم افضاء. وعيونهم شموس.

وها انا اقول للفتيات المنتهيات: ان البشرية تشكو اليوم اكثر منها في كل يوم قروحاً وجروحاً كثيرة في قلبها. ولا بلسم لها الاّ المحبة. فإنْ انتنّ شئتنّ ان تكون لكنّ يد في تخفيف آلامها فاعملنَ منذ الآن على تطهير انفسكنّ كيما تكنّ آنية صالحة لبلسم الحياة. ولا تقلنَ انكنّ قد وفيتنّ قسطاً للبشرية بحصولكنّ على شهادة من هذه المدرسة. بل اسعين وراء الشهادة المثلى — شهادة الله والناس، وشهادة قلوبكنّ، انكنّ نسوة صالحات. ولا يكن لكنّ دفتر محاسبات بينكنّ وبين الرجال. فما ظهرت امرأة صالحة على الارض الاّ اصلحت رجالاً كثيرين. ولا مشى رجل طاهر تحت السماء الاّ طهّر نسوة كثيرات. واذكرنَ انهُ ما دامت البشرية على هذه الارض فستبقى المرأة رحمها الخصبة، وثديها الفياض، وحضنها الرحب، وساعدها الحنون، وقلبها النابض في قلب الله.

الموت والحيـــاة

في اوائل آذار سنة ١٩٣٤ انهارت بناية « كوكب الشرق » في بيروت فقضت على أربعين من الذين اتفق وجودهم فيها . وبعد أيام أعلن « النادي الماروني » في بيروت عزمه على اقامة حفلة تذكارية لضحايا الحادث وضرب لهـــا ميعاداً في ١٥ نيسان . لكن الحكومة منعتها قبل ميعادها بيوم . وهذه الخطبة أعدت لتلقى فيها .

عندما كتب اليّ رئيس النادي الماروني يدعوني لالقاء كلمة في هـذا الاجتماع استهـلّ دعوتـه بقوله: «بيروت المفجوعـة بأربعـين من ابنائهـا تقيم لهم مناحة كبرى.» واذ ان التقاليد الاجتماعية تقضي عـلى مـن يقبل دعوة ان يتقيد بمشيئة الداعي، كان من الواجب عليّ ان آتيـكم وعلى قلبي عصبة سوداء. وفي عينيّ فيض من الدموع. وبـين شفتيّ ندبة اولهـا «واحسرتاه» وآخرها «واحرّ قلباه».

غير أني مـا جئتـكم لأنوح. فهل يغفر لي النادي ــ وهـل

تغفرون لي – هذا الاعتداء الفاضح على التقاليد؟ فأنا، وان نحت في حياتي على امور كثيرة، ما نحت يوماً – ولن أنوح – على الله. وعندي ان من ينوح على ميت انما ينوح على الله. ومتى كان الله في حاجة الى نوحكم ونوحي ؟ أوَليس الله حيّاً من الأزل والى الأبد ؟ إذن كل ما ينبثق منه يحيا بحياته مهما تبدلت أحواله وكيفما تغيرت أشكاله. والذي يقول ان الأموات قد بادوا واندثروا انما يقول ان الله الذي كان وما يزال حيّاً فيهم قد باد واندثر. والذي يؤمن بأن الموت رب الحياة أحرِ به ان يعبد الموت ويكفر بالحياة . والذي يبصر في الموت نهاية الحياة انما هو ضرير لا يبصر الحياة ولا الموت .

ما هو العمر ؟ – لمحة من طرف الزمان الذي لا نعرف له بداية ولا نهاية . فهي مثل الزمان – لا بداية لها ولا نهاية . لكننا قد سلخناها عن الزمان وجعلنا منها سفراً مستقلاً في ذاته . وجعلنا لذلك السفر فاتحة وخاتمة. أما الفاتحة فالولادة. وأما الخاتمة فالموت. ونسينا ان قبل تلك الفاتحة فاتحات، وبعد تلك الخاتمة خاتمات. ففاتحة كل أمر خاتمة لأمر سواه. وخاتمة كل أمر فاتحة لأمر غيره. وفاتحة الفاتحات وخاتمة الخاتمات لا تتميزان بشيء في دائرة الزمان التي لا تحدّ.

فما بالنا، ونحن الذين حصرنا الزمان بين المهد واللحد، نقبل

على المهد ونهرب من اللحـد، وما المهد إلا طريق اللحد وبابه ؟ ما بالنا نلثم اليد التي كتبت الفاتحة ونعض اليد التي خطّت الخاتمة، واليد التي خطّت الخاتمـة هي عين اليـد التي كتبت الفاتحة ؟ إن تكن خاتمة العمر شرّاً فالفاتحة التي تؤدي اليهـا شر مثلها. واذ ذاك أجـدر بنا ان ننوح على من يولد قبـل ان ننوح على من يموت. أو تكن الفاتحـة خيراً فالخاتمة الناتجـة عنهـا خير مثلهـا. وعندئذ علينا ان نغتبط بالموت اغتباطنا بالحياة.

أتروني أكلمكم بالأحاجي؟ وبماذا عساني أكلمكم إن لم يكن بالأحاجي، وتقاليـد النـاس قـد جعلت من وجودهم سلسلة كل حلقة فيهـا أحجية ؟ أجـل انها لأحجيـة ان تفصـل بين الحياة والموت وهما متصلان اتصـال النهـار بالليل ، واليقظة بالمنام ، والزهرة بالثمرة ، وقطرة الطل بقطعة الجليد.

إنهـا لأحجيـة ان تميت نبات الأرض وطيرهـا وحيوانهـا لتحوّلها لحمـاً في جسدك ودماً وعظماً. وان تدعوَ موتها حياة. وعندما تحوّل الأرض جسدك نباتاً وطيراً وحيواناً ان تدعو ذلك موتاً لا حياة.

إنها لأحجية ان تأكل الموت في كل ما تأكل. وتشربه في كل مـا تشرب. وتلبسه في كل مـا تلبس. وان تنـام وتقوم واياهُ. وان تشتهيـه في كل شهوة من شهواتك. وان تبـاركه

في كل ذلك باسم الحيــاة . ومن ثَمَّ ان تلعنــه عنــدما يأكلك ويشربك ويلبسك ويشتهيك.

إنها لأحجية ان تقول اذا مـا وُلد لك ولد: «لقد منَّ الله عليَّ بمولود.» وان تقول اذا ما مات ولدك: «لقد ابتــلاني الله بموت ولدي العزيز.» ولو أنصفت نفسك وربك لما رأيت في ولادة ابنك أو ابنتك منة، ولا في موته أو موتها بلية . أوَلم تعطِك الحياة كل ذاتها إذ أعطتك الحياة ؟ أوَلم تودعك كل أسرارها، وكل هيبتها، وكل جمالها ؟ فكيف لها ان تزيد ذرَّة فوق ذاتها أو ان تنقص ذرَّة من ذاتها ؟

أوَلم تعطك الحياةُ السماءَ وكل ما فيها . واليابسة وكل ما عليهـا. والبحـارَ وكل ما في أحشائها ؟ أم أنت لا تحسب شيئاً ملكك إلا اذا استقرَّ في جيبك، أو ضمن جدران بيتــك، أو خلف أقفال خزانتك الحديدية، أو كان في يدك صك مسجل في محكمة من محاكم الناس يشهد لك بالملكية ؟ إذن ضع البحر في جيبك. والشمس والقمر والنجوم في بيتك. واحبس الهواء في خزانتــك الحــديدية . واحصــل لك على صــك بشذا الأزهـار وأغاريد الأطيـار. وإن أنت قصّرت في ذلك فمـا اللوم على الحياة التي أعطتــك بل على يدك التي لا تسع العطية ولا تعرف كيف تتناولهـا. ولو أنك تناولتهـا بروحك لما كنت في حاجة

الى صكوك وخزائن من حديد. ولو أنك تناولتها بروحك لعرفت كيف ان الحياة إذا ما اتخذتك وسيلة لتظهر في شكل إنسان مثلك لا تكون قد «منّت» عليك بذلك الانسان، بل تكون قد «منّت» عليه بذاتها. وما أنت إلا شاهد للعجيبة التي تمت فيك قبل ان تتم في ولدك، فتفهّم العجيبة وأدّ عنها لنفسك شهادةً صادقة. وحينئذ تعرف ان الولد الذي يولد بواسطتك لا يولد لك بل للحياة كلها. فلا ولادته منّة عليك، ولا موته قصاص لك. وحينئذ تعرف أنك للحياة مثلما الحياة لك.

ومن ثمّ فالحياة ما أعطتك جسدها بكل ما فيه من جمال محسوس حتى اعطتك روحها بكل ما فيها من روعة قدسية تفوق الحس والادراك. أوَلم تعطك المقدرة على ان تحب بلا حدّ ولا قياس ولا نهاية؟ وها أنت قد وضعت لمحبتك حدّاً. وجعلت لها قياساً ونهاية. فتقرّبت من عشرات الناس وأقصيت عنك الملايين. وأحببت القليل من الكون وكرهت الكثير. ها أنت تحسبني غريباً عنك لأن ليس بيني وبينك صلة رحم أو مصلحة أو جوار. بل أنت تكرهني لأن ليس بيني وبينك صلة الموطن والجنس واللغة والدين. ألا قل لي بحقك: هل بعد صلة الحياة من صلة؟ أفي الحياة موطن أم جنس أم لغة أم دين أوسع من الحياة؟ وأنت لو اقتربت مني لوجدت فيّ صلةً جديدة بينك وبين

نفسك. وأنت لو أحببتني لوجدت فيَّ ثروة أين منها كل ثروات المال والعقار. غير أنك أقصيتني عنك فأقصيت نفسك عن نفسك. وأبغضتني فأبغضت نفسك في نفسك. وأنت، مع ذلك، تلومني وتلوم الحياة. ألا لُمْ قلبك الذي ضاق دون ثروة الحياة.

ما كرهَ الانسان الموت إلا لأنه لم يحسن محبة الحياة. وما كان الموت نكبة لو لم يجعل الانسان من حياته نكبة.

ما هي النكبة ان تنهار بناية على أربعين من الناس فتترك أجسامهم أشلاء. بل هي النكبة ان نرى في مشيئة الحياة نكبة. وان نتعثر في كل لحظة من حياتنا بأشلاء الجمال والايمان والمحبة فلا نرى في ذلك نكبة.

هي النكبة ان نرقص في أعراس الأرض – وقد تكون جنائز في السماء. وان ننوح في جنائز الأرض – وقد تكون أعراساً في السماء.

هي النكبة ان نتنفس الهواء لنحيا ثم ان ننفث في الهواء سموم أحقادنا وأحسادنا وأطماعنا لنميت ونموت.

هي النكبة ان تسقينا الأرض من عصير قلبها الطاهر فنسقيها من دماء قلوبنا الممزقة بشفار بغضائنا وأهوائنا.

هي النكبة ان نهرب من الدنيا الى الدين فيردّنا أولياء

الدين الى الدنيا. وان يكون لنا من رجال الدين من يصنعون في كل يوم صلبـاناً جديدة لا ليصلبوا عليها أنفسهم بل ليصلبوا عليها أعداءهم.

هي النكبة ان تقلد إنساناً وظيفة ليخدمك فيها، فيصبح سيدك وتصير خادمه.

هي النكبـة ان تكون صحيح العقَل، فتـأتي مـن بيت المجـانين بمن يدرّب عقـلك ويثقفه. أو ان تكون سليم الجسم فتأتي من المستشفى بعليل يداويك.

هي النكبة ان يعفّر الانسان وجهه أمام الانسان. أو ان يتسوّل حق الحياة وجمالها وحريتها من إنسان.

هي النكبة ان يكون الانسان نكبة الانسان.

أما نكبـة النكبات فهي ان تتعلق بخيوط واهية من ذيل ثوب الحيـاة، ولك الحياة بكل أرواحها، وكل أجسادها، وكل أثوابها.

ألم أقـل اني ما جئت لأنوح ؟ وكان عليّ ان أقول كذلك اني ما جئت لأهلل. فمـا التهليل إلا قرار النوح البعيـد. إنمـا جئت لأشهـد أمامكم وأمام نفسي ان القدرة التي تحييني وتحييكم وتحيي كل شيء هي أبداً هي. لا زيادة ولا نقصان. وذاك لأنهـا تنفق ذاتها بدون حساب. فمن حاول ان يحاسبها في ما تعطيـه

وتأخذ منه خسرها، ومن أعطاها كل ما له بغير حساب مثلما تعطيه بغير حساب ربحها. من استأثر بها أضاعها، ومن أنفقها وجدها.

أوَلا ترون الى النهر الذي يفرغ ذاته في البحر كيف يعود البحر فيترعه من جديد ؟ أم لا ترون الى البِرْكة التي تحاول ان تستأثر بهبة البحر كيف تمسي آسنة قذرة ؟

ونحن لن نتغلب على ما فينا من أسن الموت وقذارته حتى نتعلم كيف نحب الحياة. ونحن لن نتعلم كيف نحب الحياة حتى نتعلم كيف ننفقها بلا حساب وبلا أمل بأيما ثواب. ونحن لن ننفقها بلا حساب وبلا أمل بأيما ثواب حتى نمزق كل ما في آيدينا من صكوك زائفة تشهد لنا بالملك في هذا البعض منها أو ذاك. وندرك ان جسدها الكامل جسدنا – وهو لا يتقسم. وروحها الشامل روحنا – وهو لا يتجزأ.

وإذ ذاك ليس في العالم من نكبات ومنكوبين. بل أخوّة بلا حد. وأبوّة بلا قياس. وأمومة بلا نهاية.

دستور الطبيعة

ألقيت في حفلة الشهادات لمدرستي الذكور والاناث الاميركيتين في طرابلس ، حزيران سنة ١٩٣٤.

قلما جاءتني دعوة للخطابة في هذه الديار المباركة الا كان فيها تحـــذير لطيف من التصدي الى امرين — السياسة والدين. فكأني بالسياسة التي اصبحت ديناً في هذه البلاد ، وبالدين الذي أصبح سياسة ، يعتقدان انهما قد بلغا من العصمة والكمال حدًّا ما بعده حد . فهما لا يرغبـان في زيادة ولا يرضيان بنقصان . لذاك اذا ما تجاسر خطيب او كاتب او صحيفة على ابداء اقل الشك في هاتيك العصمة وذياك الكمال عاقباهم بالنفي او بالسجن او بالتعطيل . وذلك شأن العصمة والكمال في كل مكان وزمان!

ألا فليطمئن بال السياسة وبال الدين — فليطمئن من نحوي في الاقـل . فأنا لو كان في يدي قذيفة أستطيع ان أدمر بهـا حكومة وأشيد حكومة لما كلفت يدي عناء قذفهـا . لأني اربأ بيدي عن محو كلمة في الماء وكتابة كلمة سواها . وان لم يكن

لها عمل تعمله افضل من الكتابة على المـاء فإني أؤثر ان تبقى جامدة او ان تذري الرمل على شاطىء البحر .

وأنا لو كان على طرف لساني كلمـة تمكنني من محق مذهب ديني وخلق آخر لما سمتُ لساني تعب التلافظ بهـا . لأني أربأ بلساني عن أن يسلب كسيحاً عكازه او ان يعطي أعمى نظارتين . وان لم يكن له ما يقوله غير تلك الكلمة فخيرٌ له لو كان أبكم او لو راح يردد كل حياته : « يا جمل يا بوبعه . »

ومن ثمَّ فأنا أضنُّ بوقتكم ووقتي أصرفـهُ سدًى في التفضيل بين عكاكيز الناس وما يكتبون بها على الماء . ولو جئت لأفعل ذلك لخجلت من نفسي ان أنا لم اخجل منكم . وان لم أخجـل من نفسي لخجلت من هذا الهواء الذي أتنشقه يحمـل ما اقول الى البحر جاركم والى الجبـــل جاري . وجاري – ويا ليتكم تعرفونه – جار كريم حليم . ما مشيت يوماً على ترابـه ، او جلست على صخوره ، أو أكلت من ثمـاره وبقوله وسمعتـهُ يسألني : – من أنت ؟ وما سياستك ؟ وما مذهبك ؟ يجول في جوه النسر والخفَّاش فيمد بساطه للاثنين على السواء . يتسلقه الغني فلا ينحني امامه قائلاً : اهلاً وسهلاً . والفقـير فلا يعبس في وجهه وينتهره : أغرب عني . وتشرب من ينابيعه العـنزة الصحيحة والجرباء . فلا يسقي الاولى ماءً زلالاً والثانيـة ماءً

عكراً . ولقد سألته مرةً : مُذْكَ من أنت ؟ فلم أسمع جواباً سوى قهقهة الرياح في الاودية البعيدة . فضحكت من نفسي مع الرياح الضاحكة .

وجاركم — وهل تعرفونه ؟ — جار كريم حليم : منذ فجر الخليقة والدهور تمخر عبابه . فما غصّ يوماً بأحشادها ، ولا أنّ مرة من أثقالها ، ولا أبه يوماً لسياساتها وأديانها . يحمل تبر الناس مثلما يحمل ترابهم ، وسلاطينهم كعبيدهم ، وغزاتهم كمغزوّيهم ، واحياءهم كأمواتهم . يستحم فيه صالحهم وطالحهم ، وملحدهم ومؤمنهم ، وسليمهم وعليلهم ، فلا يتدنس ولا يعتلّ ولا يكفر . ويأكل من راحتيه الانسان والحيوان بلا فرق ولا حساب ، فلا يزيد ولا ينقص . الا سلوه عن سياسته ما هي ، وعن مذهبه ما هو ؟

وجاركم وجاري تربطهما صلة أين منها صلة الشقيق بالشقيق والحبيب بالحبيب . فكم مرة رأيت بحركم المائع الذي لا يهجع يتسلق جبلي الجامد الهاجع ليتعلم منه سر الجمود وليهجع في احضانه طوال فصل الشتاء . وكم مرة رأيت جبلي الهاجع الجامد يميع في الربيع فينحدر جذلاً مهللاً الى بحركم ليسيل واياه شراباً للغمام وحياةً للأرض .

هي الطبيعة — وأنا وأنتم منها — أدعوكم الى تفهّم سياستها

واكتناه دستورها . فالقدرة التي تسوسها تسوسكم . وسياستها لا تتغير ولا تتبدل ، فما ابعدها عن سياسات الناس ! والدستور الذي تتمشى عليه تتمشون عليه . وهو لا يتحوّر فيه حرف ولا تتحوّل منه نقطة . فما أبعده عن دساتير الناس ! هي الطبيعة أدعوكم اليها . ولكن يا ويل من يقترب منها بعينه دون قلبه . فهو يبقى بعيداً عنها وان كان منها . ويا ويل من يقبل عليها وهو يحسبه سيدها . فهو يقضي حياته عبداً لها من حيث لا يعلم .

لا تركنوا الى العلم وحده لأنه لا يعلم . وهو لا يعلم لأنه يركن في دروسه الى الحواس التي مهما اتسع نطاقها لا يسع الكون . فاذا ما قرأتم عن سنّة النشوء وتنازع البقاء وبقاء الأنسب فاعلموا انها سنّة في الكتب لا غير . وان الطبيعة ليس فيها مناسب وأنسب . فصنف من أصناف النبات ، او فصيلة من فصائل الحيوان ، او جنس من أجناس البشر انقرضت منذ أجيال لأسباب يجهلها العلم قد تعود بعد اجيال لأسباب لا يحلم بها العلم . والطبيعة لا تَخلق لتُبيد ، ولا تكتب لتمحو ، ولا تخطىء ثم تعود فتصحح خطأها . ومن ذا بامكانه ان يجزم بأن الطبيعة اخطأت هنا او هناك ؟

ثم لا تركنوا الى ما ورثتموه واكتسبتموه من أوهام

الناس وخرافاتهم القائلة بأن الانسان سيد الطبيعة . فلو كان الانسان كذلك لكان كل ما في الطبيعة رهن ارادتـه وطوع بنانه . وها هو تدفئه الشمس – وتحرقـه . ويرويه البحر – ويغرقه . ويغذيه التراب – ويأكله . ها هو تحاربه البرغشة في فراشه . وتسابقه النملة الى بيدره . والفأرة الى معجنـه . والمكروبات التي لا تُبصَر تفتك فيه ليل نهـار . إذن ليس الانسان بالسيد الذي يتوهم . ان هو في الطبيعة الا شريـك مساوٍ لكل ما في الطبيعة . يأخذ على قدر ما يعطي . ويعطي على قدر ما يأخذ .

ثم لا تقتربوا من الطبيعة بميزان النفع والضرر، والخير والشر، والجمال والشناعة . فلو كان لـكم أن تبصروا كل مـا كان وما سيكون لأدركتم أن ما هو كائن أنفع وأصلح وأجمـل ما يمكن ان يكون . واذ ذاك لما حاولتم ان تخلقوا في الطبيعة درجات ومراتب ، فتجعلوا النحلة أنفع من النملة ، والثمرة أصلح من الحطبة ، والبلبل أجمل من الغراب . لو فكرتم بأن الطبيعة ما كانت كما هي لو لم يكن أقل ما فيها كما هو . وبأن العناصر الأربعة لا تجهد ذاتها في تكوين زنبقة اكثر مما تجهـد ذاتها في تكوين شوكة . وان القوة المبدعـة لو كانت تؤثر البلبل على الغراب لمـا خلقت يوماً غراباً – اقول لو فكرتم

بذلك لطرحتم ميزان النفع والضرر ، والخير والشر ، والجمال والشناعة في بحركم الواسع الاحشاء والطويل الأناة .

ها أنا اكلمكم وأنتم تسمعون . ولست أشك في أنكم ترون كل الفضل بجانبي ، غير انني اقول لكم ان فضل الأذن على اللسان كفضل اللسان على الاذن . وحق الحطبة على الثمرة كحق الثمرة على الحطبة ! ربّ ثمرة كان لكم فيها الموت ، وحطبة كانت لكم منها الحياة .

ان لم يكن لكم بدّ من ميزان تزنون فيه الطبيعة والناس، فها أنا أعطيكم ميزاناً جديداً – ميزان الحطبة والثمرة . فأنتم لو وزنتم الناس في مثل هذا الميزان لوجدتم ان الواحد يعادل الكل والكل يعادل الواحد . وانتم لو وزنتم الطبيعة العجماء في مثل هذا الميزان لما رجح التبر على التراب ، ولا البلبل على الغراب . اما في غير هذا الميزان فلا يستقيم لها وزن ولا تستقرّون معها على حال . فهي صديقتكم حين تحسبونها عدوّتكم . وعدوّتكم حين تركنون اليها كصديقتكم . وهي صالحة وطالحة . وانتم تصرفون العمر تفرزون صالحها عن طالحها فتنتهون ابداً حيث تبتدئون .

لكنكم حالما تقتربون من الطبيعة بقلوبكم ، وكأنداد لا كأسياد ، وبميزان تستوي فيه الحطبة والثمرة ، تجدونها ألصق

بكم من ظلالكم ، وأحنّ عليكم من امهاتكم ، وأقرب لأرواحكم من أجسادكم ، وأصلح من صلاحكم بما لا يقاس ، وأجمل من جمالكم بما لا يحدّ . وتجدون ان كل ما فيها من الاشكال والألوان التي لا يحصيها علم ولا يستوعبها عقل ليس الا جسداً واحداً لروح واحد — هو الله .

ولعلكم اذ ذاك لو سألتم الطبيعة عن دستور حياتها وحياتكم السرمدي لما بخلت عليكم بالجواب ، ولكان جوابها كلمة واحدة : الطاعة . ولو سألتموها عن مصدر تلك الطاعة لأجابتكم : المحبة . ولعلكم تدركون عندئذ ان ينبوع كل عصيان هو البغض . أفلا ترون ان كل ما في الطبيعة — من الغازات ، الى السوائل، الى الجماد، الى النبات ، الى الحيوان، الى الانسان — أقله شقاء هو أوفره محبة او ألفة وأكثره طاعةً او امتثالاً ؟ وأكثرهُ شقاء اقله محبة واشدهُ عصياناً ؟

تقولون لي : اذن خيرٌ للانسان ان يعود القهقرى بدلاً من ان يسير الى الامام . وأنا أقول لكم ان لا « خلف » ولا « امام » في الله ، بل نحن فيه كيفما سرنا وأنّى انقلبنا ؛ الا اننا سلكنا سبيل العصيان ، فلا رجوع منه الا بالطاعة .

والطاعة نوعان : عمياء ومبصرة . اما العمياء فطاعة لا تعرف الغرض من ذاتها . هي طاعة الريح والصخر وقطرة

الماء . واما المبصرة فطاعة تعرف ان دستور الحياة هو المحبة . وان ناموس المحبة هو الامتثال . هي طاعة الله لناموس ألوهيته، وهي الطاعة التي ادركها رسل العالم وانبياؤه ، والطاعة التي لا مناص لنا منها اذا ما شئنا ان نجد لنا مناصاً من العذاب المؤدي الى الموت والموت المؤدي الى العذاب .

اما وقد بلغت بكم هذا الحد فاني اخشى عليكم – لاسيما على هؤلاء الفتيان والفتيات الذين يغادرون اليوم جدران هذا المعهد – طاعة تكون شرًّا من العصيان ، وهي طاعة العصيان ذاته : طاعة ما استعصى من شهوات القلب ، وما تمرّد من مطامع الفكر ، وما تنافر من منازع النفس . طاعة الناس في ظلمهم ، وفي كفرهم ، وفي ما تحرّمه أوهامهم وتحلله أهواؤهم .

ان طاعة كهذه الطاعة لبعيدة كل البعد عن الامتثال الذي ادعوكم اليه باسم المحبة . والمحبة التي اكلمكم عنها هي الألفة التي تربط كل ما في الكون .

لا يدنو الفساد من شيء الا متى حلّ بين اجزائه تنافر ، فأجسادنا ما كانت لتنحلّ لولا عناصر متنافرة تفكك ما فيها من روابط المحبة . وهذه العناصر ما كانت لتدخل اجسادنا لولا افكار فينا وشهوات قلقة تشق عصا الطاعة على المحبة .

هذه « رؤوس اقلام » اسوقها اليكم ، وهل كل ما نقوله

ونكتبه ونفعله الا رؤوس اقلام ؟ والآن لو سألتموني : مما الذي اتمناه لكم قبل كل شيء وبعد كل شيء ؟ لأجبتكم :

محبة تفهم فتطيع

وطاعة تبصرَ فتحب

الكون كامل للكاملين

أعدت للالقاء في حفلة جمعية « الاصلاح »
في اميون – الكوره في لبنان ، تموز سنة
١٩٣٤ .

الناس تجمعهم كلمة وتفرّقهم كلمة .

وانتم قد جمعتكم كلمة هي « الاصلاح » . اما الكلمات التي تفرّقكم فالله أدرى بها .

والاصلاح كلمة رنانة ، خلاّبة ، برّاقة كالزئبق . ولكنها كالزئبق قلقة ورجراجة . حتى انها بين تمددها وتقلصها لا تكاد تستقر على حال . فهي طويلة ان شئتموها طويلة . وقصيرة ان شئتموها قصيرة . بل هي كل شيء ولا شيء .

هي كل شيء اذا ما قصدتم بها اصلاح انفسكم . وهي لا شيء اذا ما قصدتم بها اصلاح العالم . فأنتم عندما تقيمون من انفسكم مصلحين لأنفسكم تشهدون بذلك ان العالم الذي هو صنع الاله الكامل كامل . وانكم امّا ابصرتموهُ ناقصاً في جهة من جهاتهِ أو معوجّاً في حالة من حالاته ، فلنقص في معارفكم

ولحسورٍ في ابصاركم . وشهادتكم اذ ذاك صادقة ولكم فيها عزاء جميل . وسعيكم اذ ذاك في توسيع معارفكم سعيٌ حميد . وجهدكم في تنقية أبصاركم جهد مثمر . ومتى انجلت أبصاركم كان كل شيء فيها جليّاً ، ومتى اكتملت معارفكم كان عالمكم كاملاً .

لكنكم حالما تقيمون من انفسكم مصلحين للعالم تشهدون بأن العالم ناقص وانكم كاملون . ومعنى تلك الشهادة ان الله الذي هو مصدر العالم ومصدركم ناقص . وانكم تعملون على اصلاحه وتكميله . وشهادتكم اذ ذاك كاذبة ولكم فيها عذابٌ أليم . وسعيكم إذ ذاك في تقويم العالم سعيٌ خاسر . وجهدكم في تكميله جهدٌ عقيم . وما دمتم كذلك دام عالمكم ناقصاً وكنتم بعيدين عن الصراط القويم .

فتشوا افكار الناس . فتشوا احلامهم . فتشوا اقوالهم . فتشوا اعمالهم تجدوهم ينحرون اعمارهم لاصلاح ما ليس من شأنهم ، ولا في مستطاعهم اصلاحه . فهم في نزاع دائم بعضهم مع بعض ، ومع الطبيعة ، ومع خالق الطبيعة . وحيثما رأيتم نزاعاً ، مهما يكن ظاهره ، فاعلموا ان باطنه واحد ، وهو قصد كلا المتنازعين ان « يصلح » خصمه كيما يجعله يرى الحياة بعينيه ، ويسمعها بأذنيه ، ويتلمسها بيديه ، ويشتمّها بأنفه ،

ويتذوقها بلسانه .

فما الولد يخاصم والده في امر من الأمور إلا مصلح يريد أن يصحح ما اختلّ في والده . وما الوالد يقاتل ولده الاّ مصلح يرمي الى تقويم ما اعوجّ في ولده . ومثلهما جار يقاتل جاره ، وقبيلة تغزو قبيلة ، ودولة تجتاح دولة ، ودين يصارع ديناً .

ما مدّ سارقٌ يده الى جيب غيره لينقل ما فيه الى جيبه الا لاعتقاده ان الحياة لم تعدل في توزيع خيراتها . فهو بالسرقة يعلمها العدل .

ولا قتل إنسان إنساناً الا كان قتله تصريحاً منه بأن الله قد أخطأ عندما خلق ذلك الانسان . فهو بقتله يصحح خطأ الله .

ولا اشتهى جارٌ امرأة جاره او أمَته أو ثوره او حماره الا لأنه رأى ذاته أحق من جاره بامرأته وأمَته وثوره وحماره . فهو بشهوته يرد الحق الى نصابه ويهدي النظام الأعلى اليه .

لعلّ أشد الناس ولعاً بإصلاح الناس هم النمامون والمغتابون . وأيُّ الناس لا ينمُّ على الناس ويغتابهم ؟ وهل النميمة والاغتياب الا ضربٌ من منازعة الله في ملكه وتدريبه على تدريب خلقه ؟ أليس ان من يقول في جاره : هو كيت وكيت ، وكان من الواجب ان يكون هكذا وكذا ، يقول بذلك لربّه : لقد

خلقت جاري على هـذه الصورة أو تلك ، وكان من الواجب عليك ان تخلقه على تلك وهاتيك ؟

وكثيراً ما أسمع الناس يتحدثون عن النـاس فيدمع قلبي في داخلي على ألسنةٍ يرهنها الكلام الباطل ، ويرهقهـا الصمت الجميل والكلام النبيل . وكثيراً ما اقرأ كتابات النـاس في الناس وللناس فأهمّ بتكسير قلمي وتحطيم دَواتي .

ان يكن ذلك شأن الناس مع الناس ، فشأنهم مع الطبيعة ليس أقل منه غرابة . فأنتم لا تسمعون إنساناً يتأمل الطبيعـة ويهتف من اعماق قلبـه مع داود النبي : « عجيبة هي أعمالك يا ربي ، كلها بحكمـة صنعت » حتى تسمعوا ألفاً يؤنبون ربّ الطبيعة لأنه لم يصنعها بحكمة تضاهي حكمتهم . فهم والطبيعة أبداً في نزاع . ولو ان الذين يعيبون على الله بعض أعماله في الطبيعة اتفقوا يوماً على رأي واحد لهـان الأمر . الا انهم ما اتفقوا ولن يتفقوا . فالذي يستحسنه الواحد يستقبحه الآخر . والذي يراه البعض صالحاً يراه سواه طالحاً .

منذ وُجد الناس على الأرض وبعضهم يعمل بغـير انقطاع على اصلاح البعض الآخر . وكلهم يعمـل على اصلاح الطبيعة . أفما آن الاوان لجهودهم الاصلاحية ان تأتي بثمر ؟ ان مثل تلك الجهود العظيـمة لو كانت صالحـة المصدر ، سديدة الهـدف ،

لكان من شأنها ان تجعل الانسان ملاكاً والأرض سماءً . فما بال الانسان لا يبرح انساناً والأرض أرضاً ؟

ما بال الانسان لا تزال لياليه تتضرّج بدماء أيامه ، وآماله تختنق بحبال اعماله ، وأحلامه تشوى بنيران آلامه ؟

ما باله لا يأكل حتى يؤكل ، ولا يصعد حتى يهبط ، ولا يعدو حتى يعثر ؟

ما باله يزرع الراحة فيحصد العناء ، ويغرس العلم فيجني الجهل ، ويبني مساكن للسلم فتحتلها الحرب ؟

ذاك لانه أبداً يهتم بلحية جاره اكثر من اهتمامه بلحيته ، فتثقل عليه لحيته وتضنكه لحية جاره . لأنه أبداً يحاول ان يصلح قريبه قبل ان يصلح نفسه . فلا تستقيم حاله مع قريبه ولا حال قريبه معه . ولو أنه حمل لحيته وترك جاره يحمل لحيته لخفّت عليه لحيته ، ولما أضنكته لحية جاره . ولو أنه أصلح نفسه قبل ان يحاول اصلاح قريبه لاستقامت حاله مع قريبه وحال قريبه معه .

وكيف للانسان ان يصلح نفسه ؟

عليه قبل كل شيء ان يقرّ بجهله . فالاقرار بالجهل هو أولى درجات المعرفة ، فالذي ينظر الى الوردة بأشواكها ويقول انه لا يعلم القصد من أشواكها ، لكنه يتمنى لو يعلم ، لأقرب

الى المعرفة من الذي ينكر على الوردة اشواكها ويحتّم بفكره ان مبدعها قد اساء ابداعها عندما سلّحها بالشوك .

والذي يتحمّل قرصة البرغوث ويقول في قلبه : يا ليتني أعرف القصد من وجود البرغوث ، لأصلَحُ اناءً للمعرفة من الذي يقاتل القدرة التي اوجدت البرغوث مدعياً انها غشيمة وعمياء وقاسية .

والذي يزرع حقله قمحاً فيبارك حتى الفأرة والنملة والعصفور عندما تشاركه في حصاده لأحقُّ بغلّة السماء والارض من الذي يتبرم من الارض والسماء لانهما أوجدتا العصفور والنملة والفأرة لتشاركه في غلّته .

ان عقلاً ليس يقبل الحياة الا حلقات مفككة ، ولا يفتأ « يصلح » هذه الحلقة منها وينبذ تلك ، لعقلٌ مظلم . وهو يفسد حيث يريد ان يُصلح . فاحذروه حتى وان دان له المنطق ، وجاءته البلاغة صاغرة ، وكانت كل خليّة من خلايا دماغه وكراً لعلمٍ من علوم النــاس . لأن الحياة ما كانت يوماً — ولن تكون — حلقات مفككة بل سلسلة مترابطة الحلقات . فَمن قَبِل منها حلقةً واحدة قَبِلها كلها . ومن نبذ منها حلقة واحدة نبذها كلها . ههنا مصدر كل غبطة . ههنا ينبوع كل شقاء .

لكنّ قلباً يقبل الحياة بكلياتها لا بجزئياتها لقلب نيّر وان

كان يجهل المنطق ، حتى وجدول الضرب والهجاء . وحيثما عثرتم عليـه فاستنيروا بنوره . لأن نوره حق ، وحقه نور . وهو يهديكم الى المعرفة . وهو يصلحكم لا لانه يفحمكم بالحجة ، بل لانه صالح . وهو يقوّمكم لا بحدّ سيفه ، بل بجميل ايمانه .

اذن فالاصلاح الذي اكلمكم عنـه هو ان يجعل الانسان نفسه صالحة لاقتبال الحياة كما هي . لا ان يهدم فيها او يشيد . ولا ان يقوّم او يسدّد . ولا ان يغيّر او يبـدّل . اذ ليس في استطاعة انسان ان «يغيّر» شيئاً في الكون . ولو كان في استطاعته ان يغيّر شيئاً لما كان على ثقة من ان ما غيّره خيرٌ من الذي كان قبل ان يغيّـره . ولن تكون له مثل تلك الثقة حتى تكون له المعرفة الكاملة بكل مـا في الكون من صلات وروابط خفيـة — أعني حتى يصبح الهاً كاملاً واقفاً عـلى كل اسرار الحياة والموت .

أترون اني في ما انا قائل لكم أنهـاكم عن العمل في سبيل المعيشة ، عن الجد وراء حاجات الجسد ، عن السعي خلف مـا تقدّرونه خيراً لكم ، عن تأليف الجمعيات للوصول الى غايات تحسبونها نبيلة وجميلة ؟ كلا ثم كلا . فكما ان العنزة لا بـدّ لها من تمهيد المكان الذي تقيل او تبيت فيه ، كذلك لا بـدّ للانسان من ترتيب معيشته على الأرض . لكنني احـذركم من

الانخداع بأنكم «تصلحون» الكون او بعض الكون في ما تفعلون .

فالكون كامل للكاملين . والحياة صالحة للصالحين .

سلام الله وسلام الناس

ألقيت في جمعية الشبان المسيحية في القدس
ليلة السادس والعشرين من آذار سنة
١٩٣٥ .

لست غريباً في أورشليم ، وان كنت لم اطأ أديمها قبل اليوم . فما انا غير واحد من ملايين الناس الذين حجّوا ويحجون اليها بالقلب والفكر والخيال . حتى كأني سكنتُها اكثر من ساكنيها ، وكنت اشدّ تلاصقاً بها من بنيها . بل كأني انا وضعت اول حجر في اسسها ، ثم تربعت واياها على صدور الأجيال منذ ذلك العهد السحيق حتى يومنا هذا . فتمنطقتُ بجبروتها ، وتعفرت بانخذالها ، وترديت بَرْفيرها ، وتسترت بأسمالها ، وشربت من ينابيع طهرها ومن مستنقعات عهرها . وكأني نفخت في مزمار داودها ودرست الحكمة على سليمانها . وكأني نطقت بأفواه أنبيائها ثم كنت اول من رفعوا حجراً ليرجموا به انبياءها . كأني بيلاطس وقيافا في آن واحد . وكأني الذي نجّر الصليب والذي مات على الصليب .

في مشارق الأرض ومغاربها مدن كثيرة ، بينها ما يقدّسه الناس تقديسهم لهذه المدينة . لكن ما يسحرني من أورشليم ليس قداستها . فما هي اقدس من سواها . ان يكن ترابها تقدّس بأرجل الانبياء والشهداء الذين مشوا عليه فالارض كلها مقدسة لانها « موطىء قدمَي » العلي الذي تنبأ الانبياء بروحه واستشهد الشهداء باسمه . وان يكن حجر في معبد من معابدها او مدفن من مدافنها مقدساً فصخر هاجع في اعماق البحر ليس اقل قداسة .

كل ما في السماء وعلى الأرض مقدس لانه فيضان من الروح الشامل القدوس .

لا . ما سحرتني أورشليم يوماً بقداستها . لكنها سحرتني كمحيط زاخر تتلاقى وتتصارع فيه غمرات الحياة البشرية بكل ألوانها وأشكالها وأصواتها . حتى اني لأتهيب الوقوف خطيباً في مثل هذا الخضم الذي كل ما فيه يخطب بغير انقطاع .

هنا كل حفنة تراب في كل مقبرة تخطب — وما أفصحها ! هنا كل حجر في كل حائط يخطب — وما أبلغه ! هنا كل لمحة من الزمان تلقي مواعظ كل الزمان . هنا كل نسمة من الهواء تبوح بكل ما في صدور الناس من اسرار . ولكن قلّت الآذان التي تسمع ، والقلوب التي تعي ، والارواح التي تُصغي

ما تسمعه الاذن ويعيه القلب فلا تحتفظ منه الا بالخلاصة التي لا تحول ولا تزول .

هنا يستحيل على اي انسان ان يشتهي شهوة ، او يفكر فكراً ، أو يحلم حلماً الا كان لشهوته وفكره وحلمه اخوان واخوات بغير عدّ .

هنا ، حيثما سالت قطرةُ دم بريءٍ تسربت الى بحر من الدماء البريئة . وأنّى تغلغلت عينٌ فاسقةٌ وقعت على الملايين من العيون الفاسقة. وكيفما درج قلبٌ كؤود واكبته جماهير لا تحصى من القلوب الكؤودة . وكلما ارتفعت صلاةٌ بارّة تلاقت بصلوات بارة ، أو جمح خيالٌ الى ملكوت الخيال الاسمى لم يعدم رفاقاً في الطريق .

هنا موطن لكل اصناف البشر . فلا اللص غريب ، ولا القاتل ، ولا شاهد الزور ، ولا عامل الخير ، ولا الطامح الى الحق ، لا ولا النبي بغير رفاق .

هنا ، في « اورو – ساليم » – في مدينة السلام – ليس من غريب الا السلام !

لا همّ لي أن أعرف من شاد هذه المدينة – ومتى . بل يكفيني ويكفيكم معرفة أن الانسان وضع أسسها ، ورفع أسوارها ، وأسماها « مدينة السلام » ليجعلها حصناً للسلام .

لكنه ما سكنها حتى فرّ سلامه شريداً طريداً من وجه النزاع الذي احتلّ ابراجها ، وتوّج ذاته سلطانها ، وبثّ عيونه في كل بيت من بيوتها ، وأقام حراسه على كل باب من ابوابها . وما تاريخها منذ تأسيسها حتى الساعة سوى ندبة للسلام ومناحة عليه . واذا ما قلت تاريخ أورشليم فكأني قلت تاريخ العالم — عالم الانسان .

منذ كان الانسان وهو لا ينفك يبني معاقل للسلام فلا تلبث ان تتحول معاقل للخصام . ويرفع مذابح للوفاق فلا يقدّم عليها من ذبيحة الا الوفاق . ويشتاق الألفة فلا يعانق غير النفار . ويحنّ الى الطمأنينة فلا يهتدي الا الى القلق .

أوَتعرفون لماذا ؟ — لأن السلام الذي يطلبه هو عدوّ السلام .

هو سلام بين بطن طاوٍ ورغيف من الخبز . والرغيف لم يُخلق الا لأجل البطن الطاوي . فما كان بينهما يوماً خصام ولن يكون . انما الخصام هو امساكك الرغيف عن البطن الطاوي .

هو سلام بين فترٍ من الارض وفترٍ يحاذيه . وفتران من التراب ما تنازعا يوماً ولن يتنازعا . اما محاولة الانسان ان يوجد بينهما سلاماً فهي النزاع بعينه .

هو سلام بين موجتين في البحر . وأمواج البحر المتلاصقة المتمازجة ما اقتتلت يوماً ولن تقتتل . أما تقييدها « بالسلام » فهو مصدر القتال .

هو سلام بين عبد وحريته . والحرية التي هي هبة الله لكل أبناء الله ما ميزت يوماً ولن تميز بين سيد وعبد . اما ادعاء الانسان بأن في قدرته ان يزوّج الحرية من العبودية لتعيشا في سلام فهو قاتل السلام .

لا . ليس السلام في شيء من ذلك . وكل ما تسمعونه او تقرأونه عن مساعي الممالك وساستها في سبيل السلام ليس أكثر من زيادة بلّة في طين. لأنهم يحاولون اقتناصه بقانون يسنونه في مجلس او ميثاق يبرمونه في مؤتمر ، ويدّعون حمايته بمدفع أو مدرعة . وما كان السلام يوماً عنقاء تقتنص بشراك ، ولا شيخاً عاجزاً ، او طفلاً قاصراً يحتاج الى حماية .

ولو ان السلام يحيا في أقفاص المواثيق لما عرف العالم غير السلام . ولو انه يعيش في أفواه المدافع واحشاء المدرعات لما كانت المدافع ولا المدرعات . انه لأقلُّ بلاهة ان تأتمن هرّاً على فأرة ، أو ان تكل حراسة الجنة لابليس من ان تأتمن مدفعاً على السلام او تجعل مدرعة حارسة له .

السلام الذي أحدثكم عنه هو غير ما تعوّد الناس الكلام

عنه باسم « السلام » . فهو لا يبتدىء وينتهي بقولكم بعضكم لبعض « السلام عليكم » او « السلام لكم » . ولا هو أنْ يأكل أحدكم طعامه في طمأنينة من سارق أو عدوّ طارق . ولا أن يروح ويغدو ، ويستريح ويعمل ، ويزوج ويتزوج وهو في مأمن من رصاصة تخترق صدره او قنبلة تنقضّ عليه من الفضاء ، فتمزّق امعاءه . هو اتزان وائتلاف في النفس . هو شقيق المحبة — بل هو المحبة . وهو روح كل روح ، وحياة كل حياة ، والقدرة التي بها يتماسك كل ما في الكون من محسوس وغير محسوس فلا يفلت منها شيء ولا يهلك معها شيء .

تقولون لي : « وهذا السلام أين نفتش عنه ؟ »

ألا فتشوا عنه في قلوبكم . اما في غير القلب فعبثاً تفتشون .

هناك ، في ذلك العالم المتناهي بحجمه ، اللامتناهي بقوته ، في تلك الرمانة المرصوفة بكل اصناف النزعات والشهوات — هناك اعقدوا مؤتمراتكم للسلم . فاذا وَفّقتم بين ما فيكم من نزعات تشدكم الى فوق واخرى تجذبكم الى أسفل ، وشهوات تسير بكم غرباً واخرى تقودكم شرقاً ، عرفتم السلام وكنتم في سلام مع العالم ، حتى وان كان العالم في اضطراب . والا بقيتم تجتاحكم عواصف النزاع وتتقاذفكم امواج الخصام حتى وان

لم يكن في جوّ العالم من حواليكم ولا غيمة واحدة .

وانتم لن توفقوا بين ما فيكم من نزعات وشهوات متضاربة ما دمتم مقودين بحواسكم لا غير ، وما لم يكن لكم خيال يخرجكم من اصداف شخصياتكم الضيقة الى حيث تشعرون وتعرفون ان الكون فيكم وانتم فيه . وانكم لا تكتملون الا بكل ما في الكون ، مثلما لا يكتمل شيء في الكون الا بكم . وعندئذٍ اذا ما همست نفس أحدكم في اذنه قائلة : « فلان عدوّي . فلأحذفه من الوجود » انتهرها قائلاً : « فلان مني وأنا منه . ان حذفته حذفت ذاتي . وكيف احذف ذاتي بذاتي ؟ هل يستطيع الوجود ان يحذف الوجود ؟ »

وهكذا تتحول حربكم مع العالم الى حربكم مع انفسكم . هي حرب ضروس أين من هولها حروب الجيوش والاساطيل . لكنكم كلما ربحتم معركة من معاركها اقتربتم من السلام . والظفر حليف كل من حارب ويحارب نفسه بثبات وقوة حتى النهاية .

ما لم تعقدوا سلماً مع انفسكم فعبثاً تطلبون السلام . ان ناسكاً في صومعة منقطعة لبعيدٌ عن السلام ما دام بعض العالم في نظره خيراً وبعضه شرًّا وما دام يرى الشر في العالم لا في نفسه .

من يصرع انساناً يصرعه مرة واحدة . لكن من يعفّ عن قتل انسان ويبقى يشتهي له العذاب والموت طيلة حياته فذاك يصرعه مرّات لا تحصى .

ليس يكفيكم سلاماً مع جاركم ان تصافحوهُ وتجالسوهُ وتؤاكلوهُ وتشاربوه . ولا يكفيكم سلاماً مع العالم ان لا تتعدوا على العالم بشيء ولا يتعدى عليكم بشيء . ما ذاك غير مظهر خارجي من مظاهر السلام .

اما السلام فهو ان تحبُّوا جاركم والعالم لأنهما منكم وفيكم مثلما انتم منهما وفيهما . فحيث كانت المحبة كان السلام ، وحيث لا محبة لا سلام .

لقد يتذرع بعضكم بالطبيعة فيقول لي : « جميل هو السلام الذي تحدثنا عنه ولكنه لا وجود له الا في مخيلتك . ها هي الطبيعة لا تقوم الا بالنزاع وقد جعلت ضعيفها طعاماً لقويّها . هوذا الذئب يبطش بالحمَل ، والعنكبوت تلتهم الذبابة ، والصقر يمزق العصفور . وها نحن لا نحيا الا اذا أمتْنا ، ولا نسْلم الا اذا أتلفنا . فما أبعدنا عن السلام – سلامك – وما أبعده عنا ! »

ليت من يقول هذا القول يتفحص الطبيعة ببصيرته لا ببصره إذن لخاطب نفسه هكذا :

«الطبيعة جسد واحد يحيا بروح واحد. وأنا ما سمعتها يوماً تقول: هذا لي. وهذا ليس لي. بل كل ما فيها لها وهي لكل ما فيها. فلا مالك ولا مملوك. وهي ما جعلت الضعيف طعاماً للقوي، الا جعلت القوي طعاماً للضعيف. فلا ضعف فيها ولا قوة ولا محاباة ولا تمييز. وهي تستخدم كل قواها لتخلق البرغشة وتحييها. ولا تستخدم أكثر من قواها لتخلق العصفور وتحييه. فاما جعلت البرغشة طعاماً للعصفور فما ذاك لأنها تكره البرغشة وتحب العصفور، بل لأن محبتها التي لا تُحدُّ تأبى عليها ان تطعم ذاتها أقل من ذاتها. واما جعلت العصفور غذاءً للصقر فليس لانها تؤثر الصقر على العصفور، بل لانها تحب الاثنين بالسواء. انها المحبة التي ما بعدها محبة ان يقدّم المحبُّ ذاته للمحبوب والمحبوبُ للمحب. فلا ينقص الواحد ويزيد الآخر بل يصبح الاثنان واحداً لا زيادة فيه ولا نقصان. وذاك شأن الطبيعة في كل اعمالها، ما ظهر منها وما استتر. فلا نزاع فيها ولا خصام.»

انت يا من يبخل على شحاذ بكسرة من خبز، كيف لك ان تفهم كرم الطبيعة التي لا تبخل على دودة بانسان؟

انت يا من لا يدين جارَه المعوزَ فلساً الا ليسترده فلسين، أنّى لك ان تدرك عفة قلب الطبيعة وسخاء روحها السموح

عندما تعطيك وتعطي كل ابنائها من ذاتها وبغير حساب ؟

انت يا من يرى نفسه سلطان الطبيعة وتاج الخليقة ، كيف لا تخجل من ان تبرّر افكارك المظلمة بغريزة الوحش النيّرة ، او ان تغطي شهواتك الاثيمة بشهوات الحشرات والهوام البريئة ؟

انت يا من له لسانٌ يهزُّ بالسلام ، وقلبٌ يحنُّ الى السلام ، وخيالٌ ينفذ من خلال اغشية الحس الى حيث الحياة أُلفة وسلام ، كيف ترضى ان تقاس بالبرغشة فتقول ان لا أُلفة في الحياة ولا سلام ؟

هب الطبيعة لا تعرف السلام ولا محرّك لها في كل اعمالها غير التنازع الجنسي والسباق الى الطعام . ألعلَّ الانسان كل الانسان في بطنه وظهره لا غير ؟ اذن ، من اين هذا الشوق المبرح ، هذا الحنين الجارف الى الحق – الى الجمال – الى المحبة – الى السلام ، وكلها تكاد تكون مترادفات لهدف واحد لا أثر فيه للبطن ولا للظهر ؟

من كان عالمه محصوراً في بطنه وظهره لا عتب عليه ان هو تحدّى الحيوان في شهواته وأعماله . فالروح فيه ما يزال هاجعاً هجوعه في الحيوان . لكن في الناس من استيقظت ارواحهم فتذوّقوا طعاماً لا تعرفه البطون ، وعرفوا قوةً لا

تستقرُ في الظهور . هؤلاء كلما شبعت ارواحهم قلّ ضجيج بطونهم . وكلما ضعفت شهواتهم اشتدت ارواحهم . وكلما صارعوا انفسهم ابتعدوا عن الصراع واقتربوا من السلام .

وها أنا أدعوكم الى حرب ولا كالحروب . حرب تدور رحاها لا بينكم وبين إنسان . ولا بينكم وبين شيء . بل بين انفسكم وانفسكم . بين الحيوان فيكم والانسان . حتى اذا ما تمت الغلبة للانسان اتسعت روحه وضاق بطنه ، وهربت من قلبه كل بواعث النزاع من حقد وغضب وبغض وادعاء وصلف وأنانيّة محصورة وكل شهوة اولها شهد وآخرها علقم . فكان في سلام مع نفسه . والانسان اذا ما سالم نفسه سالمه العالم .

هنا – على الأرض – وفي هذا الزمان الذي تمددت معدته وتقلصت مخيلته ، فراح يمجد السلام بلسانه ويذبحه بأعماله ، تعالوا نَشِدْ مدينةً للسلام . تعالوا نشدها من قلوبنا في قلوبنا . ولنطوّقها بسور منيع من الايمان بجمال الحياة وعدلها و كمالها . ولنجعل الفكر النيّر حارساً لها ، والخيال المبدع علَماً يخفق فوق أبراجها . ولنخطّ بأحرف من نور على كل باب من ابوابها هذه الكلمات الثلاث :

سلامكم في قلوبكم .

ضباب التقاليد

القيت في الحفلة السنوية لمدرسة «الفرندز» الاميركية برام الله ، فلسطين ، في الخامس من تموز سنة ١٩٣٥ .

قضت التقاليد عليكم – وعليّ – بهذه الحفلة . وللتقاليد سلطان على الناس يكاد يبزُّ سلطان القدر . فالناس أطوع للتقاليد التي ابتدعوها منهم للاقدار التي ابتدعتهم . وهم ، من هذا القبيل ، أشبه بعابد الصنم يبخّر لصنع يديه ويجدّف على الخيال المبدع الذي اوحاهُ اليهِ . أوَما ترونهم ينقادون الى تقاليدهم بخاطر طيّب ، وقلب قانع ، وفكر طائع ؟ اما الاقدار فيقضون العمر ناقمين عليها وساخطين ، ومعاندين لها ومحاربين . فترتد نقمتهم أبداً اليهم ، وتدور رحى حربهم عليهم .

ولو عقل الناس لعكسوا الامر فأطاعوا الاقدار وتمردوا على التقاليد . لأن الاقدار هي مشيئة الكون المشتركة العاملة في الكل وللكل . وهذه من عاندها فلويله ، ومن أطاعها فلخيره . اما التقاليد فليست سوى استمرار الناس في ممارسة وجهٍ من

وجوه المعيشة على نمط واحد ووتيرة واحدة . وهذه من شأنها ان تصبح على توالي السنين ظفراً على العين ، وسطاماً في الاذن، وقفلاً للقلب، وغلاً للخيال . فمن عاندها انتصر . ومن أطاعها انكسر .

لا تعجبوا لقولي هذا . فأنا أرى الحياة نوراً هادئاً يشعُّ في القلب ، وأرى التقاليد ضباباً كثيفاً يحجبه عن البصر والبصيرة . بل ارى الحياة خيالاً طليقاً لا تحدُّه حدود ولا تقوم في وجهه سدود . وأرى التقاليد أبداً تحاول حصره في قفص او حظيرة . ولو انها اكتفت بذلك لهان الامر ، لكنها بسحر الاستمرار توهم الناس بأن الضباب هو هو النور ، والحظيرة هي هي الحرية . وهكذا تقيم العَرَض مقام الجوهر والجوهر مقام العَرَض.

لم تدع التقاليد جانباً كبيراً او صغيراً من جوانب الحياة البشرية الاّ احتلته وهيمنت عليه . فهناك الفن وتقاليده ، والادب وتقاليده ، والسياسة وتقاليدها ، والاجتماع وتقاليده ، والدين وتقاليده ، والحياة اليومية بكسائها ومأواها ، ومأكلها ومشربها ، وكل حركاتها وسكناتها .

خذوا الولادة مثلاً : هل في السماء والارض ما هو أدعى الى التخشع والصمت والعبادة من سر الولادة — سر انبثاق الحياة من الحياة ؟ وما هي الولادة عند الناس ؟ مدعاة للضجة

والولائم والتهانىء . فأين التخشع وأين العبـادة ؟ أيضج النسر ام يولم الولائم عندما ينقف فرخه من بيضته ؟ ولمن التهـانيء ؟ أتهنيء الاشجارُ في البستان شجرة بثمرة ؟

وأنتَ من أنت أيها الوالد – وأنتِ من أنتِ أيتها الوالدة – لتحسبا ان الحياة شرفتكما بأكثر مما تشرف به النبتة او الطائر او البهيمة ؟ لقد اختارتكما منفذاً لمقصد من مقاصدها . فلتكن وليمتكما في تفهّم ذلك المقصد . وانتما عندما تفهمانه تؤثران الصمت على الضجة والصلاة على التهانيء ، اما في قرقعة الولائم ودندنة التهانيء فلن تجداهُ ولن تفهماهُ .

خذوا الزواج : لماذا جعلت الحياة الناس ذكراً وأنثى ؟ هل كانوا كذلك منذ الأزل ويبقون كذلك الى الأبد ؟ ولماذا ، من بين كل ما على الارض من رجال ونساء ، لا يكون هذا الرجل الاّ « نصيب » تلك المرأة ، أو هذه المرأة الاّ « نصيب » ذلك الرجل ؟ ان في الزواج لأسراراً هي كنه الزواج ، وليس فيه ما يدعو الى الزهو واللهو أو الى الهرج والمرج ، بل الى الدهشة والتأمل . ويا ليت الناس يقتدون بالغربان التي تتزاوج حيث لا يدري بها أحد حتى من عشيرة الغربان .

خذوا الموت : هي رهبة لا توازيها رهبة ان يصبح مـا هو كائن كأنهُ لم يكن . وهـو جمال ما بعـدهُ جمال ان تتحول

الحركة المشوّشة الى سكون سرّي . لكنها رهبة حوّلتها التقاليد الى مواكب من الناس تتظاهر بالحزن وتسير من بيت الميت الى المقبرة . ولكنه جمال كفّنته التقاليد في توابيت بسيطة ومزركشة ، وغيّبته في مدافن بعضها تهزأ بالقصور . وشهدت على موته بثياب الحداد وبطاقات النعوات التي كلما اتسعت اطاراتها واشتدّ سوادها كانت في نظر التقاليد أصدق شهادة واقوى برهاناً . أجل ، انها لشهادة صادقة ، ولكن ببلادة التقاليد . وانه لبرهان قوي ، ولكن عن سخافة الذين يستعبدون لتقاليدهم . اما الحياة فتسخر بكل ذلك لانها تعرف ان ما هو كائن الى الابد — فلا يموت . وان ما يموت لا كيان له على الاطلاق . والسواد والبياض عندها — كالليل والنهار — سيّان .

خذوا رجلاً أقامه الناس حاكماً عليهم : هم يغدقون عليه الألقاب الضخمة بفراغها ، ويمطرونه وابلاً من التهانىء الرنانة بريائها . ولو فقهوا لأمطروه وابلاً من التعازي الدامعة باخلاصها . لانه انتُدب ليحكم الناس قبل أن يتعلم كيف يحكم نفسه . ومن كان كذلك كان أحرى بالشفقة والتعزية منه بالتبجيل والتهليل .

خذوا تقاليد الشرف والمجد والحرية والعدل والفضيلة

والعلم وسواها تجدوها كلها أكفاناً للجوهر الذي تحاول تثبيته وتعزيزه والدفاع عنه . فان أنتم شئتم الوصول الى ذلك الجوهر حذارِ من أن تبهركم عنه زركشة اكفانه . مزقوا الأكفان أولاً . فالشرف الرفيع الذي لا يسلم من الأذى «حتى يراق على جوانبه الدم» ليس شرفاً وليس رفيعاً . إن هو إلا ناب وحش ينشب في جلد وحش آخر . أما الشرف الذي هو شرف فلا ينالهُ أذى ولا يغتسل بدماء الغير بل يستحم بدم القلب .

والمجد ليس أن تمشي الى غاياتك الأرضية على اكتاف الناس . انما المجد ان تحملهم على كتفيك الى غاياتهم السماوية .

والحرية ليست أن ترى شيئاً او احداً عقبةً في سبيلك فتزيل العقبة بالقوة أو بالدهاء . انما الحرية أن توسع نطاق خيالك الى حد أن تراك في كل شيء وكل انسان . فتصبح العقبات درجات ترقى بها الى الفضاء الذي لا درجات فيه ولا عقبات .

والعدل ليس أن تأخذ ما لك وتعطي ما عليك . فكل ما لك عليك ، وكل ما عليك لك . انما العدل أن تعرف انك أفقر من أن تعطي وأغنى من أن تأخذ .

والفضيلة ليست في حفظك للناموس . انما الفضيلة ان تحاسب نفسك كما لو كنت تجهل كل شيء الا الناموس . وتحاسب غيرك كما لو كنت لا تعرف حرفاً واحداً من الناموس .

والعلم ؟ لقد أصبحنا ، بمنّة التقاليد ، لا نذكر العلم الا ذكرنا المدرسة ، والمدرسة الا ذكرنا العلم . كأنّ العلم لا يستقر الا في شقوق الأقلام ، وبطون الكتب والدفاتر ، وبياض الاوراق وسواد المحابر ، وكأنّ لا مفاتيح لما أغلق من أسراره سوى ألسنة طائفة من حاملي الشهادات المدرسية التي تفنن الناس في تقسيمها وترتيبها وتسميتها تفنناً بلغ قمة من العقم والتمويه ليس يبلغها الا خيال التقاليد العقيم . فما معنى قولكم بكلوريوس علوم ، او معلم علوم ، أو دكتور فلسفة أو لاهوت ؟ أليس في ذلك كله ما يوهمكم بأن دكتوراً في اللاهوت هو أقرب من الله وأعرف به من رجل يجهل الهجاء ولم يسمع في كل حياته بترتوليانوس أو توما الاكويني أو لوثر ؟ وقد يكون الله في رأس محراث فلاح أميٍّ قبل ان يكون في رأس دكتور في اللاهوت . وقد تكون في مكنسة لمنظف للشوارع فلسفة تفوق كل ما وعاه دكتور في الفلسفة .

ما معنى قولكم : هذا رجلٌ متعلم ؟

أهو العلم ان تتلاعب بالأرقام صعوداً ونزولاً من الواحد الى ما لا نهاية لهُ ، وتجهل ان الربوة في الواحد ، وان الواحد لا وجود له الا في خيالك ، وانك انت ذلك الواحد ؟

ام هو العلم ان تميز بين المبتدإ والخبر ، والفاعل والمفعول

به ، وتجهل انك مبتدأ خبره مستتر فيه ، وانك الفاعل والمفعول به في آن واحد ؟

أم هو العلم ان تعرف محصولات فورموزا ومدغسكر ولا تعرف محصولات نفسك ؟

أم هو العلم ان تلجم البخار وتمتطيه ، وأن يلجمك غضبك ويمتطيك ؟

أم هو العلم ان تعرف ان الأرض تـدور حول الشمس ، والشمس تدور على محورها ، ولا تعرف حول من أنت دائر ، ولا المحور الذي تدور عليه أيامك ولياليك ؟

أيهما أحقُّ بالزهرة : « عالمٌ » يشرّحها لك طبقاً للتقاليـد العلمية فيفوته جمالهـا وأريجها ؟ أم « جاهـل » لا يعرف حتى اسمها ، لكنه اذ يمر بها يحمل جمالها في عينيه وأريجها في قلبـه ويمضي في سبيله ؟

هي التقاليد المدنية ضخّمت المدارس في أبصار الناس حتى حجبت عنهم الغاية التي من أجلها كانت المدارس ، وهي تسهيل الوصول الى غـاية الحياة ، لا خلق طغمات من الناس تتعـالى بعضها فوق بعض . وقد يكون أعلاها في نظر الناس أسفلها في نظر الله . وأخفّها في ميزان التقاليد أرجحها في ميزان الحق .

وهي التقاليـد المدرسية – ما بين امتحانات وشهـادات

وحفلات – تورّمت في عين الطالب الى حد ان أضحى اجتيازه الامتحانات المدرسية اهم في نظره من اجتيازه امتحانات الحياة. وشهادة معلميه اثمن من شهادة ربه . فهو يتدثر قلبه بالخزي ، ويتمرغ فكره في غبار الانخذال اذا ما سأله الفاحص عن طول نهر الكنج فلم يحسن الجواب . وهو يتيه عُجباً اذا ما سألته الحياة عن قدر محبته لقريبه فكان جوابه مكيدة ينصبها لقريبه فتنجح . وما همّه من الحياة وامتحاناتها ؟ ما همّه من جاره أَحبّه أم ابغضه وليس في حبه او بغضه بكالوريا او أقل من بكالوريا ؟ اما نهر الكنج فقد ينال من ورائه لقب دكتور في الفلسفة !

يا ويلنا من التقاليد وتعاويذ التقاليد ! فقد غدونا بمنّتها نؤثر وريقة سوّدتها يد انسان على المسكونة التي نوّرها روح الله .

كيف يعتز بشهادة من مدرسة مَنْ شهد الله له بحق التمتع بلاهوته وكل ما فيه من عزة لا تدرك وجمال لا يوصف واعطاه مقدرة الوصول الى حقه ؟

كيف يباهي بقطعة من رق غزال – او بورقة مفضضة او مذهبة – مَنْ نشر الله فوق رأسه رقًّا بغير قياس ورصعه بالشموس والكواكب والأقمار ؟

كيف ينسى الذي يمشي جذلاً الى شهادته المدرسية ان الحياة شهدت له بحق المشي على بساط الأرض السحري ؟

كيف يسهو عن بال من يطرب لتصفيق الناس ان اجناد السموات والارضين كلها تصفق في كل نبضة من نبضات قلبه العجيب ؟

والذي يسكر يوماً بشهادة أو لقب تمنحه أياهما جماعة من جماعات الناس كيف يصحو لحظة من سكرة الغبطة العلوية بحصوله على لقب انسان وشهادة انسان ؟ — وفي الانسان تلتقي سائر الاكوان ، وتتلامس اقطاب كل الزمان .

أقول ثانية : يا ويل الناس من التقاليد وتعاويذ التقاليد ! هم ابتدعوها لتكون لهم عوناً جميلاً فكانت عليهم عبئاً ثقيلاً . هم اختلقوها لتكون لحياتهم اجنحة قوية فكانت لها اصفاداً جهنمية . جعلتهم الحياة عنصراً واحداً ففرقتهم التقاليد عناصر . وأعطتهم المسكونةَ موطناً فلم يستوطنوا الا الأرض . وهذه جعلوها ، بمنّة التقاليد ، مواطن او مناطق . وأرضعتهم الوجودَ من ثدي واحد — هو ثديها — فأنستهم لبانُ أُمهاتهم الصغرى لبَنَ أُمهم الكبرى . وأُمهم الكبرى ما تزال تعمل كل طرفة عين على فكهم من قيودهم وردّهم الى ميراثهم الاكبر .

ها هي تقول لكل انسان : « انت كل الناس . فلا تقسمهم

اجناساً لانك ان فعلت قسمت نفسك . ولا تعادِهم لانـك لا تعادي غير نفسك . ولا تقاتلهم لأنك لا تقاتـل الا نفسك . وأنت ميراثك الكون . فان رضيت بالبعض فقد خسرت الكل . وان استأثرت بجزء فاتك حتى ذلك الجزء . »

سلوا خيطاً في ثوب من الاثواب التي عـلى اجسادكم — ما هو ومن اين هو ؟ تتبّعوه بالخيـال ، اذا امكنكم ، في كل ادوار حياته حتى الدقيقة الحاضرة . أوَلا ترون ان كل عناصر الأرض والسماء قـد تكاتفت مع كل قوَى الانسان الجسدية والروحية لتجعله' خيطاً في ثوبكم ؟ نعم . سلوا ثيابكم مـا هي ومن أين هي ؟ تجدوا انكم تلبسون الناس وحياة الناس ، والكون وحياة الكون ، في كل ما تلبسون .

وأنتم لو سألتم لقمةً تأكلونها ، او قطرةً تشربونها ، ما هي ومن أين هي ؟ لوجدتم انكم تشربون وتأكلون عرق المسكونة والناس ، ودماءهـا ودماءهم ، ولحومها ولحومهم ، في كل مـا تأكلون وتشربون .

فان كنتم تحملون الناس والمسكونـة على اجسادكم ، وفي لحومكم ودمائكم ، أفما علمتم انكم تحملونهم في ارواحكم ؟

فكيف بكم تكبرون على انسان لمال في جيبكم ليس في جيبه وتنسون ان الله في روحه وانكم واياه معاً في روح الله ؟

ام كيف بكم تشمخون بأنفكم على انسان لأنكم تحملون شهادة من مدرسة وهو لا يحمل مثلها ؟ أنسيتم ان الحياة قد شهدت لهُ بحق التمتع بكل ما في الحياة وانها لم تشهد لكم بأكثر من ذلك ؟ ام كيف بكم تكرهون انساناً لأن لونهُ غير لونكم ، او دينه غير دينكم ، او لأن البقعة التي يقطنها من الارض غير التي تقطنون ؟ أفلا ذكرتم انكم واياه تَرضعون الوجود من ثدي واحد ؟

انني أعيذكم من التقاليد وسلطانها . فهي ما خرج عليها أحدٌ الاّ أنكرتهُ فنبذتهُ ورجمتهُ ، أو صلبتهُ ، أو أحرقتهُ .

هكذا يخرج نبيّ على تقاليد الناس الدينية فيحمل عليهِ كسحاء التقاليد بعكاكيزهم ، ويجلدهُ عبيد التقاليد بسلاسلهم . وهو ما خرج على التقاليد الاّ ليريح الاولين من عكاكيزهم وينقذ الآخرين من سلاسلهم . وإن هو أكرههم على قبوله ، ولو بعد اجيال ، قبلوهُ ولكن — من بعد أن يجعلوهُ تقليداً من تقاليدهم .

وهكذا يشذ عبقريّ عن أوضاع الناس في فن من الفنون فتعمل فيهِ زنابير التقاليد حُماتِها ، وأفاعي التقاليد أنيابها . وان وجدَته أصلب من ان يلين لها لانَتْ هي لهُ ولكن — من بعد أن تجعل شذوذه تقليداً يذهب بقوّته ويتلف تأثيره .

ليت لكم أن تستأصلوا التقاليد من حياتكم فلا تأتمروا الاّ بوحي الروح ومشيئة القدر . لكن التقاليد اكثر من ان تُحصى . وجذور بعضها أعمق من أن تُستأصل .

قاوموها قدر استطاعتكم . وإما عجزتم عن مقاومتها فاقبلوها مثلما تقبل الشمس الغمامة ، والدرّة الصدفة ، والمرأة المحجَّبة حجابها . غير ناسين ان وراء الغمامة شمساً ساطعة ، وفي الصدفة درة ثمينة ، وخلف الحجاب وجهاً عجيباً .

ويا حسن يوم نمثل فيهِ عزّلاً من كل تقليد ، سافرين من كل حجاب امام حياة لا سلاح لها الاّ الحق ، ولا حجاب عليها الاّ الجمال .

الدين والشباب

ألقيت بالانكليزية في « وست هول » من الجامعة الاميركية في بيروت تحت رعاية جمعية « برذرهود » (الاخاء) في ٧ كانون الثاني سنة ١٩٣٦ ، وقد نشرت الجمعية الاصل الانكليزي في كراس على حدة .

أوّل الدين دهشة حسّية . وآخره نشوة روحيّة .

عتبة الدين سؤالك المحيِّر ، الموجع « لماذا » . أما قدس أقداسه فجوابك الجازم ، المؤنس « لأنّ » .

من طلاسم الوهم المتردّي برداء الحق يسير الدين الى حقيقة الوجود التي لا حقيقة الا ّها ، ولا غاية من حياة الانسان الا ّ الوصول اليها . مَن اتخذ لحياته غاية سواها فقد زوّج قلبهُ من الحسرة النهّاشة ، وسخّر روحهُ للباطل القاسي .

الناس من حيث الدين في مرتبات ثلاث : فهناك الواقفون عند عتبة الدين ، واسمهم الحشد الغفير . ثم المنتشرون بين العتبة وقدس الاقداس ، واسمهم الجماهير . واخيراً اولئك الذين في قدس الاقداس ، واسمهم النفر المغبوط .

لكل انسان دينه. حتى الذين كفروا بكل دين ليسوا بلا دين. فدين هؤلاء في كفرهم. ولكن قليل – قليل جداً – هم الذين بلغوا قلب الدين الفسيح، المضياف، الذي لا حدّ لسخائه، ولا نهاية لحنانه. ذاك لأن الطريق المؤدية الى قلب الدين طريق لا يستطيع سلوكها الا الذين اتخذوا لهم دليلاً أصدق وأعرف بالطريق من دليل الحواس الخارجية.

ولو ان كل المنتمين الى الدين بلغوا منتهاه وأدركوا لبّه لما كان في الارض غير دين واحد، ولما كان ذلك الدين مجلبة للجدال والخصام والنزاع كما كانت، وما تزال، حال الأديان بين الناس. ولتحوّل عالمنا هذا الى عالم غبطة لا توصف.

لكنّ لبّ الدين غير لبّ الجوزة. فهو لا يُبصَر بالعين، ولا يُلمس باليد، ولا يُسحق بالأضراس، ولا يُهضم في معدة من لحم ودم. وملمّة الناس الكبرى بأديانهم هي جهلهم تلك الحقيقة وحسبانهم لبّ الدين كلبِّ الجوزة – كشيء في مستطاع ايٍّ كان ان يتناوله ويمضغه ويهضمه. حتى ان واحدهم ليحسبها اهانة منك فظيعة اذا أنت تجاسرت ولمّحت له ان اضراس عقله قد لا تكون من الصلابة حيث تمكّنه من مضغ لبّ الدين، ومعدته قد لا تكون من النشاط حيث تقوى على هضمه. ههنا جحر الأفعى التي تنفث سمّها في اوردة الأديان البشرية. ههنا السبب الذي

يحمل الكثير من ذوي الافكار السطحية على القول بأن الدين قد أشهر افلاسه .

يكتشف عالم رياضي قضية رياضية جديدة ويعلنها للناس قائلًا ان ليس بينهم من يستطيع فهمها غير عشرة او اثني عشر . فلا يُهان احد منهم اذا ما قلت له انهُ قد لا يكون من الاثني عشر . بل قد يحسبك هازئاً بهِ اذا انت سألتهُ أن يشرح لك تلك القضية . ويناولك صديق ساعة بسيطة الصنع والتركيب ، ويسألك اصلاح دولاب صغير فيها زاغ عن مركزه . فلا تخجل من ان تعترف لهُ بأنك تجهل صنع الساعات وتركيبها كل الجهل .

ولكن يقوم في الناس نبيّ ويعلن اكتشافه لحقيقة الوجود التي هي الله فيلتفُ حوله الناس ، ويعتنقون حقيقته كما لو كانوا هم الذين اكتشفوها . ويروحون يحلفون بالنبي وحقيقته ، ويقتتلون من أجلهما ويستشهدون . وأنتم لو سألتم أحقرهم وأجهلهم هل هو فاهم للحقيقة التي جاء بها النبيُّ لما تردَّد لحظة في جوابكم بالايجاب . بل قد يأخذ سؤالكم مأخذ الاستهانة والاهانة فيردّ لكم الاهانة والاستهانة مع الربا . وفي ذلك من العجب ما فيهِ .

أيّ الامرين أصعب : ان تفهموا قضية رياضية تنقاد الى البرهان، مهما تعقّد ، أم ان تفهموا حقيقة الوجود التي تتسامى

عن كل برهان ، لأنها برهان في ذاتها لذاتها ؛ وينشلّ معها المنطق ، لأنها أبعد من كل منطق ؛ وتتفكك مفاصل الكلام ، لأنها أوسع من أن يستوعبها أيّ كلام ؟

أيهما أيسر : ان تعرفوا سرّ آلة صغيرة كالساعة ، مهما دقّ تركيبها ، أم ان تعرفوا سرّ المسكونة بأسرها ؟

لذلك اقول لكم : لا تخدعوا انفسكم ! لا تظنوا انكم بلغتم قدس اقداس الدين بانتمائكم الى هـذا الدين او ذاك من اديان الارض .

لا تتوهموا انكم وجدتم الله لأن اسمه على شفاهكم . فأنتم لو ردّدتم الـف مرة في النهار « ابانا الذي في السموات » لا تظفرون بلبّ الدين ما لم تعرفوا اباكم الذي في السموات مثلما عرفه الذي جاء ليقودكم اليه . وانتم لو صلّيتم وسلّمتم على الرسول بغير انقطاع لما كنتم من الدين في شيءٍ ما لم تعرفوا المرسِل مثلما عرفهُ المرسَل . وانتم لو قدّمتم ليهوه موسى ذبائـح بلا عدّ لما دخلتم قدس اقداس الدين ما لم تعرفوا يهوه مثلما عرفه موسى .

أتشبع أجسادكم الطاوية اذا ما غيركم أكل الخبز فشبع ؟ أم ترتوي امعاؤكم الجافة اذا ما غيركم شرب الماء فارتوى ؟ فكيف لأرواحكم الغرثى والعطشى ان تغتذي بالحق او ترتوي منـهُ

لمجرّد تشيّعكم لنبيٍّ تذوّق الحق فاغتذى ، ونهل منهُ فارتوى ؟

لو أن انبياءكم ما عرفوا الله الذي جاؤوا ليهدوكم اليهِ لما كانوا جديرين حتى بأن تذكروا اسماءهم . لكنهم عرفوه وجاؤوا ليعلّموكم كيف تعرفونه . وايمانهم بهِ لم يكن استسلاماً بغير معرفة . بل كان معرفة بلغت من تعمّقها قرار الاستسلام . فكل من عرف الحق استسلم لهُ . وكل من استسلم للحق تحرّر من الباطل .

انما الايمان الصحيح والمعرفة الصحيحة اسمان لمسمًّى واحد . فأنتم لا تعرفون شيئاً الاّ متى خبرتموهُ وفهمتموهُ . وأنتم متى خبرتم شيئاً وفهمتموهُ آمنتم به . أما اذا آمنتم بشيءٍ قبل ان تخبروه بأنفسكم وتفهموه بأرواحكم كان ايمانكم كالعين الضريرة التي لا تنفي وجود الشمس ، او كالأذن الصمّاء التي تسلّم بوجود الصوت . ان ايماناً كهذا لايمان اعمى اصمّ . لكنهُ افضل بكثير من اللاّ إيمان .

ما كان الانبياء ليعرفوا الله لو لم يكن الله فيهم . لأنهُ يستحيل على الانسان ان يدرك ما كان خارجاً عن نطاق وجوده . ولو لم يكن الانبياء واثقين من وجود الله في كل انسان لكان اقلّ سخافةً منهم ان يكرزوا بالفنّ على الحجارة وبالفلسفة على القرود من ان يكرزوا بالله على خلائق خالية من الله . اذ

كيف للظلمة ان تفهم النور ؟ كيف للباطل ان يعرف الحق ؟ أم كيف للمتناهي ان يستوعب اللامتناهي ؟ انما النور وحده يفهم النور. والحق وحده يعرف الحق. واللامتناهي يستوعب اللامتناهي.

انما الله وحده يستطيع ان يعرف الله .

هو الاله الكائن في الانبياء الذي عرف وكشف الله الانبياء . وهو ذلك الاله نفسه الكائن في كل انسان الذي في قدرته ان يعرف الله في كل شيء وفي كل انسان .

تقولون لي : « اذنْ كيف لنا ، ولسنا انبياء ، ان نعرف الله ؟ أنصبح كلنا انبياء ؟ »

أوَما سمعتم بوحي الانبياء ، او نشوة الانبياء ، او غيبوبة الانبياء ؟ هي حالة روحية تنعقد فيها ألسنة الحواس المبلبلة ، وتخرس اصوات شهواتها الصاخبة ، وتخمد نيرانها المتأججة ، وتنشلّ عضلاتها الثائرة ، فيشعر الانسان كأنهُ ليس من لحم ودم . فيبصر — وعيناهُ شاخصتان او مغمضتان — ما ليس تبصره العين . ويسمع — وأذناهُ مفتوحتان او مسدودتان — ما ليس تسمعه الاذن . تنحلّ عنهُ قيود الزمان ، فيرى ذاته في كل زمان . وتنهار حواليه حواجز المكان ، فيراه في كل مكان . بل انه يشعر كأنْ ليس زمان او مكان ، ولا موت ولا حياة ، بل كينونة لا حدّ لها ولا قياس . لا توصف بقلم ولا بلسان . كل

صوت منها ولا صوت لها . كل شكلٍ فيها ولا شكل لها . كل لونٍ فيها ولا لون لها . كل حركةٍ منها وهي هادئة ابداً . كل كيان فيها وهي فوق كل كيان. وكل شيء فيها وهي لا شيء.

عجيبةٌ هي غيبوبة الانبياء الى حدّ انه ُحتى اليوم لم يمشِ على الارض انسان تمكّن من وصفها . فامّا قرأتم ما قاله الانبياء فاعلموا انكم لا تقرأون سوى رموز ضئيلة، متقطعة، لما خبروه ُ وعرفوه ُ بالروح . وانكم لن تفهموا كل ما تبطنت بهِ تلك الرموز من الحق والجمال الا ّ متى استطعتم ان تسلخوا انفسكم عن انفسكم مثلما سلخوا انفسهم عن انفسهم . وهم لم يبخلوا عليكم بالدلائل لسلوك الطريق التي سلكوها .

ما تلكم الطريق – طريق الرؤى النبوية – بالطريق السهلة . من سلكها كان كمن جاء البحرَ ليستحمّ فابتدأ بنزع اثوابه ثوباً بعد ثوب . لكنما الاثواب التي تثقل الروح وتعرقله في مسيره الى الله اكثر بما لا يقاس من الأثواب التي تغطي الجسد، وفي نزعها مشقات اين منها مشقات نزع الثياب المألوفة . أألمّح لكم عن بعضها ؟

هناك ثوب البغضاء الذي لا بدّ من نزعه . فالبغضاء وهدة تفصلكم عن الانسان او الشيء الذي تبغضون . وما دمتم منفصلين عن اي شيء او اي انسان بقيتم منفصلين عن الله الكائن

في ذلك الشيء وذلك الانسان . حين ان الحبّ عبّارة تصلكم بمن تحبون وبما تحبون . فكلما تكاثرت العبّارات التي تمدونها من قلوبكم للناس اقتربتم من ذواتكم الحقة، وبالنتيجة ، من الله الساكن فيكم . وكلما ازدادت واتسعت الوهدات في قلوبكم وأفكاركم بينكم وبين الغير طالت غربتكم عن ذواتكم، وبالنتيجة، عن الله الذي لا ذات لكم الاّ فيه .

كل ما تحبونهُ هو صديق لكم . وكل ما تبغضونهُ هو عدوّ لكم . فأي الأمرين أفضل : ان تبغضوا فتكونوا أبداً في حرب ، أم ان تحبوا فتكونوا أبداً في سلام ؟

وهناك أثواب الحسد ، والطمع ، والفسق ، والكبرياء ، ومحبة المال ، وكل لذة – أو ألم – تغتذي جذورهما بما هو عرضة للانحلال والفساد والتعفُّن . كل هذه عقالات للروح وحجارة رحى في عنقهِ . والله ليس في شيء منها . أما السبيل إلى الله فسبيل التعري.

مزّقوا أغشية الاوهام الحسية عن عين الروح تبصروا الله . طهروا أذن الروح من ضوضاء الحواس تسمعوا الله . من انتصر على نفسهِ كان الله جائزة انتصاره .

أتمجدون قائداً ربح معركة كبيرة في حرب كبيرة ؟ إنهُ لمجدٌ فارغ . إنما المجد لانسان ربح معركة مع نفسهِ .

أتستعظمون رجلاً أنار الظلمة في مساكنكم ؟ انها لعظمة بقزمة. انما العظمة لمن أنار الظلمة في قلبه او قلب سواه .

أتستلذون طعاماً ام شراباً أم عملاً أم أي سعي من المساعي الأرضية ؟ إنها للذة جوفاء . انما اللذة التي ما بعدها لذة لَفي نشوة تقصيكم عن ذواتكم الفانية لتدنيكم من ذواتكم التي لا تموت. تلك هي النشوة الروحية التي يجد فيها الدين غايته ومعناه واكتماله . وذاك هو السبيل اليها — سبيل تعرية الذات — سبيل تطهير الذات .

ألست أسمع عالِماً بينكم يقول لي : « أين برهانك ? »

أسفاهُ ياعالمي الكريم ! ليس لك برهان عندي . إنما لك برهان عند نفسك ، لو أنت شئت ان تكلفها عناء التفتيش عنهُ .

كم سنة من سني عمرك احرقتها كيما تتمكن من ان « تبرهن » لذاتك كيف ينمو النبات ويتكاثر ، او كيف تدور الأجرام السماوية في ابراجها ، او كيف تتحد العناصر الكيميائية وتفترق؟ لقد أجهدت جسمك وعقلك أيما اجهاد قبل ان توصلت الى معرفة ما تدّعي معرفته الآن . تلك هي طريق العلم — طريق المختبر. لقد مشيتها بثبات وصبر واخلاص . وانت ، مع ذلك ، ماتزال بعيداً — لله ما ابعدك ! — عن « لأن » ذلك الجواب الحاسم،

المؤنس الذي تضيع فيه كل « لماذا » و « من اين » و « الى اين ؟ »

والآن دعني اسألك : كم شمعة احرقت يا صاحبي – ولا اقول كم سنة – كيما تخبر الله في نفسك ؟ ام تريدني ان اقول كيما « تبرهن » عن الله لنفسك ؟ كم مرّة صوّبت مجهر روحك ومرقبه الى باطنك ؟ كم مرة لُطمتَ على خدك الأيمن فحوّلت الأيسر كذلك ؟ كم مرة لجمت غضبك ، وأجعت بغضاءك ، وخنقت طمعك ، وفرضت الصوم على اهوائك الأرضية ؟ كم موقعة خضْت في بريّة نفسك مع الشيطان الذي في نفسك ؟ وكم مرة عَرّيْت روحك من جلابيب الكبرياء والمجد الباطل والتمسك بذاتك المائتة ؟

اذا كنت لم تفعل شيئاً من كل ذلك ، اذا كنت لم تسلك الى الآن سبيل تطهير الذات فكيف لك ان تشك في نهايتها او ان تنفيها ؟ وانت يا صاحبي لو كنت تعرف مختبر الروح لطلّقت من اجله مختبرك الآخر . فتريّث – تريّث طويلاً – قبل ان تقدم على نفي شيء لم تخبره بنفسك بعد . لكن سيأتيك زمان – وهو آتٍ كل انسان – فيه تسلك حتى النهاية سبيل النشوة الروحية ، سبيل الذين يرون رؤى ، سبيل الانبياء . لأن الله الذي هو انت وأنا وكل انسان سيقيم له من سلالة آدم سلالة

انبياء . — بلى . واكثر من انبيـاء . تلك هي رسالة الدين . بل ذلك هو الدين .

فما هو قسط الشباب من هذا الدين او قسط هذا الدين من الشباب ؟

انا اعلم ، وانتم تعلمون ، وجهة نظر المتشائمين في كل زمان ، لاسيما في هـذا الزمان . وانا اسمع ، وانتم تسمعون ، اصواتهم المتهدجة حنقاً على رذيلة سطحية او غيرةً على فضيلة موهومة .

اولئك هم المصلحون الذين لم يُصلحوا انفسهم بعد . اولئك هم المتدينون الذين تكرّموا على الله فأجّروهُ مسكناً في مكان معلوم ، ومنحوهُ عمراً ، وسلّحوهُ بباسبورت ، ووضعوا على عاتقه مهمّات لا تحصى ، اوّلها وأهمّها ان يصغي دائماً لصلواتهم — وما اطولها ! وان يجيب طلباتهم — وما اكثرها ! اولئك هم الناعبون دائماً ابـداً : « شبابنا منغمس في الفحشاء . شبابنا لا يعرف لهُ مثلاً أعلى غير مثل الملذات الجسدية . شبابنا لا يعرف الله . شبابنا سائر بخطوات سريعة الى جهنم . »

ما لكم ولهم . انهم لا بـدّ من ان يجـدوا انفسهم — يوماً ما .

الشباب هو عهد الفيضان — فيضان اشواق الروح وشهوات البهيمية . فيضان نور الأمـل وظلمات اليـأس . فيضان حرارة

الايمان وحمّى الشك . فيضان الحب المستسلم والتمرد الغضوب .
هو عهد الاندفاع . من شاء ان يلجم اندفاع الشباب أحرِ بهِ ان يلجم العاصفة . والذي يرغب في توجيه فيضانه نحو محجة واحدة عليهِ ان يحبّب محجته الى الشباب ويحمله على الايمان بها ، لا ان يفرضها عليهِ فرضاً .

فالشباب لا يطيق ما يُفرض عليه ، ولا يأتمر الا بمشيئة الحياة المتدفقة في داخله . واذا ما فترت همته نحو عقيدة او مذهب ما فلأنهُ لا يحس في تلك العقيدة او ذلك المذهب بما يدفعه الى اعتناقهما بشوق وحرارة . لكنهُ اذا ما آمن بمثل اعلى غرسهُ في قلبهِ وروّاهُ بعصير حياتهِ .

هو الشباب حَمَلَ بشارة الصليب الى كل اقطار العالم وتحمّل في سبيلها الرجم والسجن والصلب وكل اصناف العذاب .

هو الشباب سار بالقرآن من قلب الجزيرة العربية الى قلب الاندلس في الغرب والصين في الشرق .

هو الشباب فَرَشَ – وما يزال يفرش – جسده الحيّ على الجمر والشفار ليجعل منهُ بساطاً ناعماً لأقدام خيالٍ بديع اسمه الحرية .

والشباب ما برح شباباً . هو اليوم مثله في الامس . وسيكون في الغد مثله اليوم . ينقاد ، ولكن الى ما يحب ، ويستقتل في

سبيل ما يحب . وينفر ، ولكن مما يكره ، ويقاتل كل ما يكره . وأبداً يطمح الى الحرية . فعلى من شاء تقريبه من الدين ان يجعل الدين أوسع من المذهب وأفسح من المعبد . عليه ان يبين للشباب بمحبة لا حدّ لصبرها ان سبيل الدين هو السبيل الأوحد الى الحرية ، وان باب المعبد – مهما يكن مقدساً – ليس بالباب الوحيد اليها . عليه ان يمشي بالشباب من دهشة الحسّ الى نشوة الروح . من وحشة الحيرة العضّاضة الى أنس الايمان الحنون . من تشويش وآلام « لماذا » الى سلام وغبطة « لأنّ » – من الله في المعبد الى الله في القلب . واذ ذاك تصبح كل عثرات الشباب ، وكل سيئاته ، وكل آثامه درجات يرقى بها الى حريته المثلى – الى ذاته الكبرى – الى الله .

ذاكم هو الدين الذي أعرفه وأشهد به . فمن العبث ان تسألوني عن المحل الذي يجب ان تحلّوه من حياتكم . اذ لا محل في الحياة لغير الدين . فما هو بالشيء الذي يمكنكم وضعه على الرفّ عندما تنطلقون في النهار الى شتى المقاصد والاعمال . ولا هو بالشيء الذي تتناسونهُ الاّ في اوقات الصلاة . او تخبئونهُ تحت الوسادة عندما تستسلمون للنوم . فأنتم ما لم تعبدوا الله في كل ما تعملون وتفكرون وتشتهون لن تدخلوا قدس أقداس الدين . أفترضون ان تبقوا الى الابد متسولين

خارج الباب ؟

لقد كلمتكم في الدين وحاولت ان ادلكم على معناه بأقل ما امكنني من الكلام وابسطه . لكنني اعرف ان في كل كلام – لاسيما عن الدين – فخاخاً ومزالق كثيرة . واني لأستغفركم كل كلمة جاءت فخاً او مزلقة لأحد منكم ، من حيث قصدتها ان تكون بساطاً ناعماً لأفكاركم وجناحاً قوياً لخيالكم .

وإمّا ودّعتكم الآن فلكي نعود ونلتقي في ذلك الفضاء الاوسع حيث لا حدّ ولا قيد ولا وداع .

على ضريح رفيق

ألقيت عند دفن سابا عريضة ، شقيق
الشاعر نسيب عريضة، وقد توفي في نيويورك،
ربيع سنة ١٩٢٢ .

أيها الرفيق الحبيب !

ما أفصحك ساكتاً ، وأعياني متكلماً ! وما أحراك بالوعظ وأحراني بالصمت والاصغاء !

لست أبكيك ، لأنك حيث أنت في غنى عن الدموع . فأنت حيّ في وجداني كما انك حيّ في وجدان البقاء . وإن يكن في عيني دموع فأنا أحق بها منك . لأنك قد تجردتَ من شهواتك . أما أنا فلا أزال في مهبّ شهواتي كذرّة في مهب الريح . ولقد تركتَ مطامعك على الفراش الذي لفظتَ عليه آخر أنحابك . اما انا فلا ازال اذهب الى فراشي فأجد مطامعي تحت وسادتي . وأقوم من فراشي فألبسها بين طيات ثيابي . وأجلس الى مكتبي فألاقيها بين محابري وأوراقي . ولقد نزعتَ خوف الموت . اما انا فلا أزال قصبة مرتجفة على سبيل الموت والحياة .

لا ، ولست أحزن عليك ، لأني أجـدر بحزنك علـيّ منك بحزني عليك. وكيف أحزن وأنا اقول مع الرسول : « يا اخوة لا تحزنوا كمن لا رجاء لهم » ؟

ولست أعـدد صفاتك ، لأني أجهل صفات نفسي . لكن في الكون سجلاً يحفظ صفاتي وصفاتك وصفـات كل بشر . وانا قاصر عن استيعابه . لذاك أحجم عن أن أُقيم من نفسي حَكَماً على خيرك وشرّك . وأنّى لي ذلك وانا اجهـل شرّ الحيـاة وخيرها ؟

ها انت في لحـدك . وانا واقف على حافة لحدِك . فمـا الفرق بيننا ؟

ان جسمـاً اعطتكـهُ الأرض تسترجعه اليـوم الأرض . وكأنها يوم أعطتك إياه قطعت على نفسها ميثاقاً ان تتغذى به وتغذيه . لكنها لم تجعله هبة أبدية لك . بـل تركت لنفسها الحق باسترداده حين تشاء . ولقد برّت بوعدها فغذتك بأثمارها ، وعطرتك بأزهارها، وظللتك بأشجارها. واليوم تستعيد جسمك الى حضنها لتغذي بـه أعشابها وأزهارها وأشجارهـا . أما أنا ، فلغاية لست أدركهـا ، لا تزال هذه الأرض تتـغذى بجسمي وتغذيه . وستـأتي ساعتي فتكـفُّ الأرض عن تغـذية جسدي وتأخذه غذاءً لها .

لقد عاد جسمك الى الارض . ولا حيف في ذلك ولا غبن. أما روحك التي انبعثت من الروح الكبرى فالارض أضيق من أن تسعها . وأضعف من أن تدّعيها .

لقد زالت عن عينيك غشاوة لا تزال على عينيّ. فأنت — حيث أنت — ترى ما لا أراه، وتسمع ما لا أسمعه ، وتشعر بما لا أشعر بهِ .

هوذا القبور من حولك معشبة مزهرة . فهل هي تبكي أم هي تضحك ؟ لعمري لا هي ضاحكة ولا هي باكية. بل ماثلة لقوّة الوجود التي لا تعرف فرحاً ولا حزناً . ولا عدلاً ولا ظلماً .

هوذا السماء قد أمطرتنا في هذا الصباح مدراراً . فأين القطرات التي هبطت من السحاب ؟ لقد تغلغل بعضها في التراب. وتصاعد بعضها الى الجوّ . ولكن يداً خفية ستعود بها من مخابئها ، ان لم يكن اليوم فغداً ، الى البحر الكبير الذي انفصلتْ منهُ .

ونحن ، مَن نحن ، الاّ قطرات انفصلت من بحر الوجود الأعظم . ومهما تقادمت بها الغربة ، لا بدّ لها من العودة الى البحر الكبير ، الى حضن خالقها .

لا، لست أبكيك ولا أحزن عليك، لأنك حيّ في وجداني

كما أنت حيّ في وجدان البقاء .

ولا أودّعك الوداع الاخير بل أقول – الى اللقاء يا أخي ، الى اللقاء !

فهرست

للمؤلف

الآباء والبنون

الغربال

المراحل

كان ما كان

همس الجفون

جبران خليل جبران

زاد المعاد

البيادر

كرم على درب

لقـــاء

الأوثان

صوت العالم

مذكرات الأرقش

مرداد

مرداد (بالانكليزية)